المعين على تدبر كتاب الله المبين

سورة الغاشية

سلسلة التفسير

بن سالم

أستاذ العلوم الشرعية


بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة التفسير

النافـذة إلـى يوم البـعث

من خلال ســـورة الغاشيـة

بن سالم باهشام

أستاذ العلوم الشرعية.

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وإخوانه وحزبه.

مقدمة

الحمد لله العلي الأعلى الوهاب، صاحب الأسماء الحسنى، والصفات العلى، نحمده – سبحانه وتعالى– ونستعينه ونستهديه، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ولن تجد له وليا مرشدا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدا عبد الله ورسوله، وصفوته من خلقه وخليله، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه، وصلى الله علينا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين. وبعد، أوصي نفسي وإياكم بالعناية و الحرص على كتاب الله ﷻ، تلاوة وحفظا ومراجعة وتدبرا ، وعملا، فإنه حياة القلوب؛ وسكينة النفوس؛ ونور الصدور، قال الإمام أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي– رحمه الله– : (ينبغي لتالي القرآن العظيم؛ أن ينظر كيف لطف الله تعالى بخلقه في إيصال معاني كلامه إلى أفهامهم، وأن يعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر، وأن يستحضر

عظمة المتكلم سبحانه ويتدبر كلامه).[1]

والحذر كل الحذر، أن يكون هدفنا فقط قراءة حروفه وحفظه، دون الغوص في كنوزه ومعانيه، والسعي للعمل به للاستفادة من خيراته، فقد عاب الله على المنافقين لما أعرضوا عن تدبر كتابه العزيز، فقال سبحانه في حقهم، وفي حق كل من سلك طريقهم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.[2]

قال الإمام القرطبي – رحمه الله –: (عاب المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن والتفكر فيه و في معانيه).[3]

وقال الإمام ابن القيم– رحمه الله–: (فقراءة آية بتفكر وتفهم، خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان، وذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السلف؛ يردد أحدهم الآية إلى الصباح، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام بآية يرددها حتى الصباح، وهي قوله تعالى: ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُالْحَكِيمُ ﴾.[4]

---

[1] – مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة، ص46.

[2] – سورة النساء، الآية 82.

[3] – تفسير القرطبي (290/5).

[4] – سورة المائدة الآية 118.

فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب)[1].

خطة الكتاب :

حاولت في سلسلة المعين على تدبر كتاب الله المبين؛ من الحزب الأخير من القرآن الكريم، أن أعالج سبعة محاور أساسية في كل سورة من سور هذا الحزب، وهي كالتالي:

المحور الأول: قراءة السورة كاملة على يدي معلم للقرآن:

لهذا أوردت نص السورة كاملة في الأول، قصد قراءتها قراءة صحيحة وسليمة، وذلك بإتقان تلاوتها، والحفاظ على المخارج الصحيحة للحروف. والصواب أن تقرأ بين يدي معلم للقرآن، لتكون الانطلاقة صحيحة، لأن القرآن لا يتلقى من المصاحف مباشرة، وإنما من أفواه الحفظة المتقنين، وفي هذا قال العلماء: (لا تأخذ القرآن من مصحفيّ، ولا العلم من صحفيّ)، فالقرآن الكريم ليس كأي كلام عربي آخر، فهو كلام الله، يُقرأ بطريقة معينة تُسمى التلاوة والتجويد، ولا يمكن معرفة كيفية تلاوة القرآن وتجويده من المصحف فقط، بل لابد من مُحفظ للقرآن يُعلم، فتسمع من هذا المحفّظ وتقرأ أمامه

[1] – مفتاح دار السعادة، لابن القيم، (187/1).

وتتعلم على يديه، وتبدأ بقصار السور من حزب سبح، فتتلو القرآن كما سمعته منه، وذلك المحفظ هو كذلك قد تلقاه سماعيا من معلمه، وهكذا تم التلقي سماعيا بالسند النوراني المتصل حتى يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقرآن لا زال يُتلى كما أُنزل منذ عهد النبوة بفضل محفظين ومعلمين ورجال سخرهم الله لحمل كتابه وحفظ كلامه، وهذا معنى (لا تأخذ القرآن من مصحفي)، أي لا تأخذه من رجل قرأ القرآن ما بين دفتي المصحف، وسنده في التلقي منقطع، لهذا تجده لا يحسن التجويد ولا التلاوة، لأن قراءة القرآن دون ضبط حروفه وتجويده ليست تلاوة. والقرآن والعلم لا يؤخذان من بطون الكتب، وإنما من أفواه العلماء.ولا يشك أحد في أهمية الجلوس بين أيدي العلماء، لا للعلم المجرد فحسب، ولكن من أجل التربية والتزكية كذلك وهي الأساس، فقد كان عصر السلف رضوان الله عليهم عصر كله بركة وازدهار، لأنهم تلقوا القرآن والعلم بالطريقة الصحيحة، صحبة وعلم، ولقد كان سيد الخلق أجمعين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يدارسه جبريل عليه السلام القرآن مرة كل رمضان.

المحور الثاني: التعريف بالسورة ويتضمن:

1 – سبب تسمية السورة.

2 - تصنيف السورة.

3 - عدد آيات السورة.

4- ترتيب السورة في المصحف.

5- ترتيب السورة في النزول.

6 - فضل السورة إن صح أثر في فضلها

7 - سبب نزول السورة، إن كانت تلك السورة لها سبب نزول.

المحور الثالث: مقصد السورة:

يمكن أن يُعَرّفَ مقصد السورة بأنه: مغزى السورة الذي ترجع إليه معاني السورة ومضمونها، ويمثل روحها الذي يسري في جميع أجزائها. فعندما يُنظر إلى المقصود، يوجد مركوزاً في كل موضوع من موضوعات السورة، ويوجد بيّناً واضحاً، يتراءى عندما يُدقق في النظر، ويُتأمل تأملاً جيداً. ويمكن أيضا أن يقال بعبارة أخرى: إن مقاصد السور: علمٌ يعرف به مغزى السورة الجامع لمعانيها، ومضمونها. والمغزى يعني الحكمة التي قصدت السورة لتحقيقها؛ والهدف الأعلى؛ والغاية العظمى التي جاءت السورة لتحقيقها.

المحــور الرابــع: علاقة السورة بما قبلها.

المحور الخامس: فقرات السورة ومضامينها.

المحور السادس: تفسير فقرات السورة والعلاقة بينها .

المحــور السابـع: هداية آيات السورة.

كل هذا ليسهل التعامل مع القرآن الكريم الذي هو الكتاب المبين، ويتحقق به إن شاء الله الهدف المنشود؛ وهو الإعانة على الاطلاع على معاني سور حزب سبح الذي يعتبر أكثر الأحزاب قراءة في الصلاة وخارجها، وأكثرها حفظا. ليسهل فهمها والعمل بما فيها.

المحور الأول:

نص سورة الغاشية كاملا

سورة الغاشية

﴿ سورة الغاشية مكِّيَّة وآياتها 26 ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ
نَاصِبَةٌ (3) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (4) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5)
لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ
(7) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ
(10) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12) فِيهَا
سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ
(15) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16) أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ
(17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ
(19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ
(21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23)
فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ
عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26) ﴾.

المحور الثاني:

التعريف بسورة الغاشية.

1- سبب تسمية السورة:

سميت سورة "الغاشية" بهذا الاسم، لورود هذا اللفظ فيها: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم سماها كذلك. فهذه من السور التي سماها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه. وسور القرآن منها ما وردت تسميته على لسان النبي صلى الله عليه وسلم ، فتكون توقيفية، ومنها ما سمته الصحابة رضي الله عنهم، واشتهر بينهم.

ولهذا قد نجد للسورة الواحدة أكثر من اسم؛ كما يقال مثلاً: سورة الإسراء، أو يقال سورة بني إسرائيل, وسورة محمد، أو سورة القتال، وهكذا سمى الله ورسوله هذه السورة بهذا الاسم الحكيم، وفي المصاحف وكتب التفسير كذلك باسم "**الغاشية**" وبعض المفسرين سماها سورة: " **هل أتاك**" حيث لم تبدأ سورة أخرى بهذا السؤال، وهناك: (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ)[1]، وهناك في القرآن ثلاث مرات غير هذه:

- في سورة الذاريات: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ)[2].
- في سورة البروج: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ)[1].

---

[1]- سورة الإنسان، الآية 1.

[2] - سورة الذاريات، الآية 24.

- في سورة الغاشية: **(هَلْ أتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)**[2].

ولكن في أثناء السور، وسورة الغاشية، هي السورة الوحيدة التي بدأت بهذا السؤال، فسماها البعض بهذا الاسم: "**هل أتاك**."ووردت في الأحاديث باسم: **(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)**،لكن الاسم الذي اشتهرت به هو سورة: "**الغاشية**".

2 - تصنيف سورة الغاشية.

سورة الغاشية مكية بالاتفاق. نزلت قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة.

3 - عدد آيات سورة الغاشية:

آيات سورة الغاشية 26 آية.

4 - ترتيب سورة الغاشية في المصحف:

ترتيب سورة الغاشية بالمصحف: 114/88، بعد سورة الأعلى، وقبل سورة الفجر.

5- ترتيب سورة الغاشية في النزول:

1- سورة البروج، الآية 17.

2- سورة النازعات، الآية 15.

رتبت سورة الغاشية في النزول 68 ، نزلت بعد سورة الذاريات . وقبل سورة الكهف.

6 – فضل سورة الغاشية.

ورد في فضل سورة الغاشية أحاديث صحيحة تُشير إلى قراءة الرسول –صلى الله عليه وسلم– لها في مواضع عديدة من صلواته ومنها:

أ – صلاة العيدين:

عن سمرة بن جندب رضي الله عنه (كان النبيُّ يقرأُ في العيدينِ: "سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى" و"هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ")[1].

وأيضًا ممّا ورد في فضل سورة الغاشية قراءة الرسول لها في صلاة العيديْن:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، (أنَّ رسولَ اللَّهِ –صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ– كانَ يقرأُ في العيدينِ ويومِ الجمعةِ بـ" سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى " ، و"هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ"، قالَ: وربَّما اجتمعا في يومٍ واحدٍ فقرأَ بِهما)[2].

ب – صلاة الجمعة:

ومن فضل سورة الغاشية مواظبة الرسول صلى الله عليه وسلم على قراءتها

1 – [إرواء الغليل، الألباني، الصفحة أو الرقم: 644: صحيح]

2 – [صحيح أبي داود، الألباني الصفحة أو الرقم: 1122، صحيح]،

في الركعة الثانية من صلاة الجمعة: سمرة بن جندب رضي الله عنه (أنَّ رسولَ اللَّهِ –صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ– كانَ يقرأُ في صلاةِ الجمعة بـ"سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى"، و"هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ")[1].

وأيضًا كان يقرأ بسورة الجمعة ثم سورة الغاشية: عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة (أنَّ الضَّحَّاكَ بنَ قيسٍ سألَ النُّعمانَ بنَ بشيرٍ ماذا كانَ يقرأُ بِهِ رسولُ اللَّهِ –صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ– يومَ الجمعةِ على إثرِ سورةِ الجمعةِ ، فقالَ: كانَ يقرأُ بِـ"هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ")[2].

ج – صلاة الظهر والعصر:

وأيضًا قراءتها في صلاتي الظهر والعصر: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، (كان عليه الصلاة والسلام يقرأ في الظهرِ والعصرِ بـ"سَبّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى"، و"هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ")[3]. وهذا يؤكد فضل تلاوة سورة الغاشية وأهمية تلاوة المسلم لها.

وقد ورد بخصوص سورة الغاشية أحاديث غير صحيحة، بل فيها الموضوعة

---

1 – [صحيح أبي داود، الألباني، الصفحة أو الرقم: 1125، صحيح]

2 – [صحيح أبي داود، الألباني، الصفحة أو الرقم: 1123،صحيح].

3 – [السلسلة الصحيحة، الألباني، الصفحة أو الرقم: 1160، إسناده صحيح].

منها:

– عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(من قرأ سورة الغاشية حاسبه الله حساباً يسيراً)** . وهو طرف من حديث طويل موضوع في فضائل السور قد ذكره الواحدي والزمخشري وتبعه البيضاوي، وقد نص المحدثون على وضع هذا الحديث ومنهم العراقي في ألفيته[1].

– عن أبي عبد الله قال : **«من أدمن قراءة : (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ"، في فريضة أو نافلة، غشّاه الله برحمته في الدنيا والآخرة ، وآتاه الأمن يوم القيامة من عذاب النار)**[2].

7 – سبب نزول سورة الغاشية:

---

[1] – هذا الحديث أخرجه بطوله ابن الشجري في الأمالي الشجرية (79/1)، وابن عدي في الكامل (2588/7)، وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (240/1)، وقال بعده: (قد فرَّق هذا الحديث أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره، فذكر عند كل سورة منه ما يخصها، وتبعه أبو الحسن الواحدي في ذلك، ولا أعجب منهما لأنهما ليسا من أصحاب الحديث، وإنما عجبت من أبي بكر بن أبي داود كيف فرَّقه على كتابه الذي صنفه في فضائل القرآن، وهو يعلم أنه حديث مُحال.) ، ثم قال: (حديث فضائل السور مصنوع بلا شك)، وقال: (نفس الحديث يدل على أنه مصنوع؛ فإنه قد استنفد السور، وذكر في كل واحدة ما يناسبها من الثواب بكلام ركيك في نهاية البرودة، لا يناسب كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.).

[2] – وردت هذه الرواية في كتابي كنز الدقائق ونور الثقلين

لم يرد في حقِ سورة الغاشية سبب نزول صريح، وإنَّما الناظر في مواضيع هذه السورة المباركة، سيدرك تمامًا أنَّ هذه السورة إنَّما نزلتْ لتعرّف الناس على أهوال يوم القيامة، ولتبين له معاقبة المكذبين ومصيرهم، ومصير المؤمنين أيضًا، قال تعالى في مطلع هذه السورة الكريمة: **(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ)**، لذلك يمكن اعتبار سبب نزولها هو تعريفها الناس بمصائرهم. وقد جاء في سبب نزول قوله تعالى في سورة الغاشية: **(أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)**، قال قتادة: "لمَّا نعتَ الله ما فِي الجنَّة، عجِبَ من ذلك أهلُ الضَّلالة، فأنزل الله تعالى: **(أفلا ينظرون إلى الإبلِ كيفَ خُلِقُتْ)**".

المحور الثالث:

مقصد سورة الغاشية.

" يوم البعث"

مقصد السورة هو أصل معانيها التي ترجع إليه السورة، فهو أصل في فهم معاني كلام الله تعالى، ولهذا فإن معاني السورة لا تتحقق إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر، واستخراج مقصدها، ولا نستطيع الوصول إلى كل المعاني في السورة، إلا بعد أن ننظر في موضوعات هذه السورة، ثم نفهم الرابط والمقصود الأعظم الذي يجمع هذه الموضوعات، وترتبط وتلتئم به آيات هذه السورة، عندها إذا أعدنا النظر في هذه السورة من أولها إلى آخرها فهمنا فهما آخر، وعرفنا لماذا ذكر هذا هنا، ولماذا ذكر هذا هنا، ولماذا افتُتح بهذا، واختُتم بذاك، فهذه مهمات عظيمة جدا تعيننا على فهم كلام الله، وتبين لنا مقاصد الآيات وأسرار وضع هذه الآيات في السورة. يقول الشاطبي – رحمه الله– : "اعتبار جهة النظم في السورة لا يتم به فائدة، إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر، فالاقتصار على بعضها غير مفيد للمقصود منها، كما أن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما، لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها". وبمعرفةِ مقصدِ السّورة تنتظم آيات السورة، ويظهر التناسب بين آياتها، فتكون لُحْمة واحدة يجمَعُها معنًى واحدا. فإذا عرف المقصود، عرف لماذا ذكر الله هذا؟ والآن نأتي إلى سورة الغاشية، فبعد الاستقراء، نجدها تناقش قضية من أهم القضايا الإنسانية، وهي: " **البعث**"، وتقرير الإيمان به،

والجنة والنار. وهي القضية التي كان ينازع فيها مشركو العرب، القضية التي تؤثر تأثيراً بالغاً في مجرى الحياة، وسلوك الإنسان، فإن إيمان المرءِ بالبعث، والجزاء، والجنة، والنار، هو الذي يحدد مساره، فيكون كافرا به، ويجعله ضمن الوجوه العاملة الناصبة في الدنيا دون جدوى، والتي ستصلى يوم البعث نارا حامية، وستسقى من عين آنية، أو مؤمناً بالبعث، فيكون راضيا لسعيه في الدنيا لأنه خالص لله، وموافق لفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، و في جنة عالية. يوم القيامة، فمن أقر بالبعث، وبوعد الله، ووعيده، بحث عما يرضي ربه، كي يسلم من وعيده، وينال موعوده. ولهذا كانت هذه القضية فيصلاً بين المؤمنين والكفار، ومَفرِق طريق بين الأبرار والفجار. كما أن أهل الإيمان، أنفُسَهم، يتفاوتون بقدر إيمانهم بها؛ فمن كان قلبه معموراً بالإيمان بالبعث، والجنة، والنار، انضبط، واتقى الله عز وجل، ومن كان ضعيف الإيمان بهذه القضية، كثير الذهول عنها، فإنه يقع في المعاصي ويجترح السيئات، ولا يتذكر بمن ذكّره. وهذا أمر مشاهد تجده في نفسك، فكلما قوي في قلبك الإيمان باليوم الآخر، ازدجرت عن المعاصي، واستجبت للمذكِّر، وخفَّت نفسك إلى الطاعات، لأنك ترى أنك تدَّخر ليوم آت، وإذا خفّ ذلك في نفسك، وغاب، فإنك تقتحم المعاصي، وتفرط في الواجبات. ولهذا كان

النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(أكثروا من ذكر هادم اللذات الموت)**[1].

ويقال: إن رجلاً سب عمر بن عبد العزيز – رحمه الله– فلما هم أن يرد عليه قال: "**لولا اليوم الآخر لأجبتك** ". فإذا شعر الإنسان باليوم الآخر، أحجم عن كثير من الكلام، وكف عن كثير من الفعال، لأنه يعلم أن ذلك في صحيفته وأنه سيلقاه. ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا..** ﴾[2].

بعد اكتشاف مقصد سورة الغاشية نرجع لنعيد قراءة السورة، وفعلا سنجد البعث في كل فقرة من فقراتها، وفي كل آية من آياتها الستة والعشرين، ولمّا فُهِم أنّ السّورة تتحدّث عن البعث،عُرف: أنّ هناكَ ارتِباطاً بين جُزْئيّاتِها وأحكامِها، وأنّ هذه الأحكام لمتُذْكَر شَتاتاً وسُدًى من غيرِ أن يكونَ بينَها رابط. يقولُ البقاعي رحمه الله:"وَمَن حقَّقَ المقصودَ من السّورة، عرف تناسُبَ آيِها وقَصَصِها وجميعِ أجزائها". ويقول كذلك: "الأمرُ الكُلّي المُفيد بِعِرْفانِ مُناسباتِ الآيات في جميعِ القرآن، هو أنّك تنظُرُ الغرض الّذي سيقَت له السّورة"، فهدف ومقصود سورة الغاشية: توجيه الإنسان، وإرشاده لطلب العلم النافع الذي هو البعث وحقيقة الدنيا، قال تعالى في سورة الروم: **(وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ**

---

[1] – ابن حبان وحسنه الأرنؤوط.

[2] – سورة آل عمران، الآية 30.

الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)[1]،فهذه السورة دعوة إلى طلب علم الآخرة، فسورة الغاشية منهج لربط المبتدأ بالخبر، فالدنيا مبتدأ، والآخرة خبر، والدنيا مزرعة للآخرة، وليس الكيس من ترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا، وإنما الكيس من جعل الدنيا مزرعة للآخرة، ورضي عن الإمام علي بن أبي طالب الذي قال: **(اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)**[2]، فمعنى هذه الحكمة ليس هو المتبادر إلى أذهان كثير من الناس، من العناية بأمور الدنيا والتهاون بأمور الآخرة .بل معناه على العكس، وهو المبادرة والمسارعة في إنجاز أعمال الآخرة،ودوام الاستعداد لها، وهذا أمر مرغوب مطلوب، ولهذا المعنى شواهد كثيرة من الكتاب والسنة، فيها الأمر بالاستعداد للآخرة وللقاء الله بالعمل الصالح والمبادرة بذلك .وأما الشق الأول منه، وهو قوله: **(اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً)** فله وجه مقبول، ووجه آخر مردود: أما الوجه المقبول : فهو إذا فهم على أنه دعوة إلى الأخذ بالأسباب ، وبذل الوسع في تحصيل الرزق، والاهتمام بعمارة الأرض فيما يرضي الله عز وجل. أو يقال: إن معنى قوله: **(اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً)**: هو تسبيق

---

1 - سورة الروم، الآيتان 6-7.

2 - قال الألباني رحمه الله :لا أصل له مرفوعاً،وإن اشتهر على الألسنة في الأزمنة المتأخرة" انتهى من "السلسلة الضعيفة" (8)، وجاء في " فتاوى اللجنة الدائمة " (المجموعة الثانية 269/3) :" ليس بحديث مرفوع عن الرسول صلى الله عليه وسلم ".

عمل الآخرة على عمل الدنيا عند التعارض، والتمهل في عمل الدنيا، وعدم المسارعة به كعمل الآخرة ، بل يتمهل ويتأنى ويزهد فيه لأنه . على افتراض أنه مخلد في الدنيا . سيأتيه كل ما يريد من الدنيا، وسيأخذ منها كل ما يريد، ولكن .. ما لا يأتيه اليوم قد يأتيه غداً ... وهكذا تكون هذه الحكمة في الحث على الزهد في الدنيا وليس كما يفهمه كثير من الناس . قال ابن الأثير رحمه الله: "الظاهر من مَفْهُوم لفظِ هذا الحديث :

أمَّا في الدنيا فَلِلْحثِّ على عِمارتها، وبقاء الناس فيها حتى يَسْكُن فيها، ويَنْتَفع بها من يَجيء بعدك، كما انْتَفَعْت أنت بعَمَل من كان قبلك، وسَكَنْتَ فيما عَمَرَه، فإنّ الإنسان إذا عَلم أنه يَطُول عُمْرُه أحْكَم ما يَعمَلُه، وحَرص على ما يَكْسِبُه، وأمّا في جانِب الآخرة فإنه حَثٌّ على إخلاص العمل، وحُضُور النّيَّة والقَلْب في العباداتِ والطاعات، والإكْثار منها، فإنّ من يَعْلم أنه يموت غَداً يُكْثِر من عبَادَته، ويُخْلِص في طاعتِه، كقوله في الحديث الآخر : (صَلِّ صَلاَةَ مُوَدِّعٍ). قال بعض أهل العلم : المراد من هذا الحديث غَيْرُ السَّابق إلى الفَهْم من ظاهره ؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم إنما نَدب إلى الزُّهْد في الدنيا والتَّقْلِيل منها، ومن الانْهمَاك فيها والاسْتِمتاع بلَذَّاتها، وهو الغالب على أوَامره ونَواهيه فيما يتعلق بالدنيا، فكيف يَحُثُّ على عِمارتها والاسْتِكْثار منها، وإنما أراد – والله أعلم – أنّ الإنسان إذا عَلِم أنه يعِيش أبداً

قَلَّ حِرْصُه، وعَلِم أنّ مَا يُرِيدُه لَنْ يَفُوتَه تَحْصِيلُه بتَرْك الحِرْص عليه، والمُبَادَرة إليه ، فإنه يقول: إن فاتَنِي اليَوْم أدْرَكْتُه غَداً ، فإنّي أعيش أبداً ، فقال عليه الصلاة والسلام : **(اعْمَل عَمَل من يَظُنُّ أنه يُخَلَّد)** ، فلا يحْرِص في العمل ، فيكون حَثًّا لَهُ على الترك والتَّقْلِيل بِطَرِيقَة أنيقة، من الإشَارة والتَّنْبيه ، ويكون أمْرُه لعَمَل الآخِرة على ظاهره، فيَجْمَع بالأمْرَيْن حَالَة واحدة وهو الزُّهْد والتَّقْلِيل ، ولَكِن بلَفْظَيْن مُخْتَلِفَيْن ، وقد اختَصَر الأزهري هذا المعْنى فقال : معْناه : تقْدِيم أمْرِ الآخِرة وأعْمَالِها حِذَارَ المَوْت بالفَوْت على عَمل الدنيا ، وتَأخير أمْر الدنيا كَراهيَة الاشْتِغال بها عن عَمل الآخرة " [1] اهـ. ومثل هذا قاله المناوي رحمه الله في "فيض القدير . " وقد قال ابن عمر رضي الله عنهما : **(إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك).**

فما عليكم يا أولي الألباب، إلا أن تفهموا ما بعد الإشارات، وما وراء الكلمات، من خلال آيات القرآن كله،وأحاديث السنة النبوية العظيمة، التي شرحت هذا القرآن الكريم، وسيرة النبي – عليه الصلاة والسلام– المصحوب، قدوة واقعية تطبيقية عملية، فالرسول صلى الله عليه وسلم "كان قرآنا يمشي على الأرض".

[1] – "النهاية" لابن الأثير (927/1) .

المحور الرابع:

فقرات سورة الغاشية

ومحاورها الأساسية:

المقدمة: الآية الأولى:

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾[1].

محور المقدمة: تشويق الأمة المحمدية لمعرفة خبر القيامة.

وجه الله عز وجل في افتتاحية سورة الغاشية خطابه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولأمته من بعده، وهذا الخطاب خاص بكل الأمة المحمدية وهذا الخطاب يحمل نبأ يوم القيامة وما يتضمنه هذا اليوم من أهوال شديدة، بدأت السورة بأسلوب الاستفهام وذلك من أجل تشويق الأمة المحمدية لمعرفة مضامين السورة المباركة، كما أشار أهل العلم إلى أن أسلوب الاستفهام الغرض منه التعظيم للحديث عن الغاشية وهو يوم القيامة.

الفقرة الأولى من الآية 2 إلى الآية 16.

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (3) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (4) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ

[1] – سورة الغاشية، الآية 1.

ضَرِيعٍ (6) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[1].

محور الفقرة الأولى: تقرير الإيمان بالبعث، والجنة والنار.

يَدُورُ مِحْوَرُ الفقرة الأولى حول صنفين من المكلفين وجزاؤهم الأخروي:

1- القِيَامَةُ وَأَحْوَالُها وَأَهْوَالُهَا، وَمَا يَلْقَاهُ الكَافِرُ فِيهَا مِنَ العَنَاءِ وَالبَلَاءِ ، وَمَا يَلْقَاهُ المُؤْمِنُ فِيهَا مِنَ السَّعَادَةِ وَالهَنَاءِ .

2- عذاب العابدين العاملين الكافرين: ذل ونار، وماء حار وضريع فالله عز وجل إذ أمر بالعبادة والتقوى إنما أمر بعبادته وحده، وتقواه وحده على شريعته ومنهجه، فمن عبده مشركا به غيره ، أو عبده على غير هذه الشريعة بعد نزولها فهو في النار . بعد أن بين الله عز وجل جزاء العاملين الناصبين

---

[1] - سورة الغاشية، الآيات 2 - 16.

الكافرين، يأتي جزاء العاملين العابدين المتقين المقبولين عند الله عز وجل.

3 – بين الله عز وجل، ما لعباده المتقين عنده يوم القيامة من نعمة ورضى وجنات، وعيون وسرر وأكواب ووسائد وبسط في مقابل عملهم السليم الصحيح في الدنيا.

الفقرة الثانية: من الآية 17 إلى الآية 20.

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) ﴾[1].

محور الفقرة الثانية: إثبات الألوهية بدلائل الربوبية.

– الدّلاَلَةُ وَالبَرَاهِينُ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَقُدْرَتِهِ البَاهِرَةِ ، في خَلْقِ الإِبلِ العَجِيبَةِ، وَالسَّمَاءِ البَدِيعَةِ، وَالجِبَالِ المُرْتَفِعَةِ، وَالأَرْضِ المُمْتَدَّةِ الوَاسِعَةِ، وَكُلُّهَا شَوَاهِدُ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللّهِ وَجَلاَلِ سُلْطَانِهِ.

---

[1] – سورة الغاشية، الآيات 17 – 20.

الفقرة الثالثة: من الآية 21 إلى الآية 26

﴿ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26) ﴾[1].

محور الفقرة الثالثة: بيان وظيفة الرسل، وهي الذِّكْرَى.

وَخُتِمَتِ السُّورَةُ الكَرِيمَةُ بالتَّذْكِيرِ بِرُجُوعِ النَّاسِ جمِيعَاً إلى اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِلْحِسَابِ وَالجَزَاءِ.

[1] – سورة الغاشية، الآيات 21 – 26.

المحور الخامس:

علاقة سورة الغاشية

بسورة الأعلى

التي قبلها.

1 – ختم الله سبحانه سورة الأعلى بالترغيب في الآخرة، وأنها خير من الدنيا، فقال: **(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)**،[1] وافتتح سورة الغاشية ببيان أحوال الآخرة ، فقال: **(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ)**[2]. وفصل في أحوال الأشقياء والسعداء، يوم الآخرة الباقية.

2 – لما أشار سبحانه في سورة الأعلى إلى المؤمن والكافر والجنة والنار إجمالا،فقال: **(سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى)**[3]، بسط الكلام في سورة الغاشية. فيما أعده لمن تذكر بالذكرى، ومن تجنب الذكرى.

3 – ورد الأمر بالتذكير في أواسط سورة الأعلى مطلقا، وورد في سورة الغاشية في خاتمتها مقيدا بعدم الإرغام والسيطرة على المتذكر، وهذا يوحي بأن السورتين لهما سياق عام واحد.

---

[1] – [سورة الأعلى، الآيتان 16، 17].

[2] – [الغاشية: 1، 2]

[3] – [الأعلى: 10 – 12].

المحور السادس:

سورة الغاشية.

شرح وبيان.

المقدمة

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾[1].

أولا: معاني الاستفهام في القرآن:

﴿ هَلْ ﴾: قال بعض المفسرين: إنها استفهامية، وليس المراد بالاستفهام من الله عز وجل، ما كان ناشئاً عن جهل، حاشا وكلا، وإنما أريد به التقرير، ولهذا قال البعض الآخر : معنى ﴿هَل﴾: أي قد أتاك حديث الغاشية، فيكون مآل الاستفهام إلى التقرير، وقد ورد فيما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم (أنه سمع قارئاً يقرأ ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ قال: نعم قد أتاني).

وللاستفهام في اللغة العربية التي نزل القرآن الكريم بها معانٍ كثيرة

و"هل" حَرْف اسْتِفْهام، وحرف الاسْتِفهام في اللغة يعْني طلب العِلْم بِمَجْهول، هذا هو الاسْتِفْهام، قد تسأل إنْساناً: ما اسْمُكَ؟ أين تسْكن؟ فالاسْتِفْهام، طَلَبُ العِلْم بِمَجْهول، لكنَّ الاسْتِفهام يخْرُجُ عن الاسْتِفْهام، وعن هذا التعْريف إلى معانٍ كثيرة:

1 – اِسْتِفهامٌ بِمَعْنى الأمر:

[1] – سورة الغاشية، الآية 1.

قال تعالى في سورة المائدة: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ ﴾[1]. هذا اِسْتِفهامٌ بِمَعْنى الأمر؛ هل أنتم مُنَفِّذون لِكَلامي؟

2 – اِسْتِفهامٌ بِمَعْنى النَّهْي:

قال تعالى في سورة الرحمن:﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[2].

3 – اسْتِفْهامٌ بِمَعْنى التَّسْوِيَة:

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3].

4 – استفهامٌ بِمَعْنى الإنْكار :

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[4].

وقال تعالى في سورة الزمر:﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾[5].

---

1 – [المائدة: 91].

2 – [الرحمن: 60].

3 – [البقرة: 6].

4 – [الأنعام: 40].

5 - [الزمر: 64].

5 – اسْتفهامٌ بِمَعْنى التَّشْويق:

قال تعالى في سورة الصف:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

6 – اسْتِفهامٌ بِمَعْنى الاسْتِئناس:

قال تعالى في سورة طه: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾[2]. هل المولى عز وجل لا يعْرف ما بِيَمينه؟! هذا من قبيل الاسْتئناس كي يستأنس سيّدنا موسى عليه السلام بالله عز وجل.

7 – اسْتِفهامٌ بِمَعْنى التَّقْرير:

قال تعالى في سورة الشرح: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[3]. أيْ لقد شرَحْنا لك صدْرك.

8 . اسْتفهام بِمَعْنى التَّهْويل:

قال تعالى في سورة الحاقة: ﴿ الْحَاقَّةُ*مَا الْحَاقَّةُ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾[4].

---

[1] - [الصف: 10].

[2] - [طه: 17].

[3] - [الشرح: 1].

[4] - [الحاقة:1 – 2].

وقوله تعالى في سورة القارعة :﴿ الْقَارِعَةُ*مَا الْقَارِعَةُ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾[1].

9 . اسْتفهامٌ بِمَعْنى التعظيم :

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾[2].

10 . اسْتفهام بِمَعْنى التعجُّب :

قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾[3].

11 . استفهامٌ بِمَعنى الوعيد :

قال تعالى في سورة الفيل: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾[4].

وقوله تعالى في سورة الفجر: ﴿ أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾[5].

ثانيا: معنى الاستفهام في سورة الغاشية

---

[1] - [القارعة:1 – 3].

[2] - [البقرة: 255].

[3] - [الفرقان: 7].

[4] - [الفيل: 1].

[5] - [الفجر: 6].

الاسْتِفهام في سورةِ الغاشية في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾، يُعْطي أربعة معانٍ في وقْتٍ واحدٍ :

*معْنى التَّعَجُّب.

*ومعْنى التعْظيم.

*ومعْنى التَّشْويق.

*ومعْنى التَّقْرير.

ثالثا: لماذا الاستفهام في أول سورة الغاشية؟

افتتحت سورة الغاشية بسؤال: هل أتاك حديث الغاشية؟ وهذا أحد فنون الخطاب القرآني الذي تكرّر في أكثر من سورة مثل قوله تعالى من سورة الإنسان: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾[1]. وقوله تعالى من سورة الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾[2]... وهكذا. ولعل السر في ذلك، أن القرآن – الذي هو كلام الله – يريد أن يعالج طبيعة أساسية في الإنسان، وهي عدم التركيز الذهني. الإنسان ذهنه في

1 - [الإنسان 1]

2 - [الفيل 1].

الأعمّ الأغلب متشتت غير متمركز، ومنافذ ذهنه كثيرة، وفي اللحظة الواحدة تتوارد عليه الكثير من الخواطر، وينتقل من واد إلى واد، بلا رابط ولا سبب، هذا الإنسان، إذا أردت أن يتمركز ذهنه في لحظة واحدة، اسأله سؤالا، بمجرد أن تسأل إنسانا سؤالا ما، فإن ذهنه يتمركز على نقطة واحدة ليجيب، أو على الأقلّ لينتظر الجواب. لذلك أغلب الخطباء والمحاضرين والكتّاب البارعين يبدؤون بطرح سؤال، وهذا من الفنون الجاذبة للمتلقّي، أن تأتي بسؤال هو مورد اهتمام الجميع، فالكلّ سينتظر الجواب.

ولأن القرآن – كلام الله – جاء ليشكل رابطا بين الإنسان وبين الله تعالى، لذلك تبدأ آيات سورة الغاشية بالسؤال: هل أتاك؟ فالسؤال يضع الإنسان في نطاق مسؤولية الجواب، والجواب يجعل بين السائل والمسئول رابطا واتصالا، يقول له: أنت لست مهملا، أنت مورد اهتمام ورعاية، الله يريد لهذا القلب المتشتّت المتبعثر أن يجتمع لتكوين اتصال وارتباط بالله.

﴿ حَدِيثُ ﴾: الحديث هنا بمعنى الخبر.

رابعا: الغاشية عذاب ونعيم.

﴿ الْغَاشِيَةِ ﴾: الغاشية اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك، لأنها

تغشى الخلائق، أي تغطيهم، فمعنى الغشي: التغطية، يقال: غُشي عليه، أو مَغشي عليه، إذا غُطِّي على عقله، وتغشاه بالثوب يعني غطاه، وقيل بالإضافة، بمعنى أن (الغاشية) غاشية القيامة، فإذا قلنا: غاشية القيامة، فإنها تشمل كل شيء، فتحمل على العموم، مادام الحق سبحانه عمَّم. وهو اختيار ابن جرير الطبري . وبهذا يتبين أن من أسماء القيامة الغاشية.

وكثير من المفسرين فسّر الغاشية بالعذاب، وقد أخذوا هذا المعنى من آية ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ ..﴾[1]، والحقيقة أن الغاشية لا تنطبق على العذاب فقط، وهو تضييق لمفهوم الغاشية، التي تنطبق كذلك على النعيم أيضا، نعم، هناك غاشية عذاب، كما أن هناك غاشية رحمة، والغاشية في هذه الآية من سورة الغاشية، كما جاءت مطلقة وفصلت في الآيات التي بعدها، فعلينا أن لا نحصرها في الأهوال والعذاب، فهي غاشية الولاية، والرحمة، والنعيم كذلك. فكلمة الغاشية في حدّ نفسها لا يمكن صرفها لخصوص العذاب إلّا بقرينة، أما المعنى العامّ للغاشية فهو التغطية على نحو الشمول، فمثلا في معراج النبي صلى الله عليه وسلم، يعبّر القرآن فيقول: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾[2]، فما الذي غشى السدرة غير النور والرحمة ..؟ وفي الحديث يقول

---

[1] - [العنكبوت55].

[2] - [النجم16].

رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وسلم فيما رواه أحمد في المسند:

(...فَاطَّلَعَ أَبُو أَيُّوبَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا مَنَعَكَ مِنْ هَذِهِ الْقَصْعَةِ؟ قَالَ: " رَأَيْتُ فِيهَا بَصَلًا "، قَالَ: وَلَا يَحِلُّ لَنَا الْبَصَلُ ؟ قَالَ: " بَلَى فَكُلُوهُ، وَلَكِنْ يَغْشَانِي مَا لَا يَغْشَاكُمْ)، وَقَالَ حَيْوَةُ: **(إِنَّهُ يَغْشَانِي مَا لَا يَغْشَاكُمْ)**[1]، فأصل اللفظ لا يستفاد منه العذاب.

بعدما يتمركز ذهن الإنسان بسؤاله عن الغاشية، يفتح القرآن نافذة ليعلّمنا ما الذي يحدث في الغاشية، هذا القرآن الذي يشهد الواقع المعيش، أنه كلام متجدّد متطوّر، فماذا لديه عن الغاشية؟ وما الذي سيجري فيها؟

افتتحت سورة الغاشية بأسلوب التشويق، وهو الاستفهام **(هل أتاك)**، للتشويق إلى استماع الخبر، وللتنبيه والتفخيم لشأن حديث الغاشية، أي هل جاءك يا محمد صلى الله عليه وسلم خبر الغاشية – التي تغشى الناس وتعمهم إما بشدائدها وأهوالها، أو بالنور والرحمة، فيكونوا تحت ظل عرش الرحمن يوم لا

---

[1] – مسند أحمد ط الرسالة (38/ 493)، ح 23507"يغشاني" أي: ينزل عليَّ من الملائكة . وأخرجه ابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" (1888) ، والنسائي في "الكبرى" (6629) ، والطبراني في "الكبير" (4091) ، وفي "الشاميين" (1149) من طرق عن بقية، بهذا الإسناد – وهو عند بعضهم مختصر . وحيوة المذكور في آخر الحديث: هو ابن شُريح الحمصي شيخ الإمام أحمد .

ظل إلا ظله، أو على منابر من نور– ،... وهي القيامة؟

﴿ أَتَاكَ ﴾. القرآن الكريم يستعمل أتى لما هو أيسر من جاء، يعني المجيء فيه صعوبة بالنسبة لأتى ، أو لما هو أصعب وأشق مما تستعمل له (أتى)، ويكاد يكون هذا طابع عام في القرآن الكريم، ولذلك لم يأت فعل جاء بالمضارع، ولا فعل الأمر ، ولا اسم الفاعل.

فقوله تعالى: (هَلْ أَتاكَ حَديثُ الغَاشِيَةِ) أن الذي جاء هنا هو الحديث وليس الغاشية، في حين أن الذي جاء في النازعات هو الطامة (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى)[1]، والذي جاء في عبس هو الصاخة (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ)[2]، ونحوهما مما ذكر. لذا لم يقل سبحانه: أتتكم الغاشية وإنما حديث الغاشية، والحديث يعني الكلام، فهناك جاءت الصاخة أو الطامة وليس الحديث عنها، لهذا استعمل جاء. وفي سورة الغاشية، لم تأت الغاشية وإنما الكلام عنها في الدنيا (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ).

وبدأت السورة بهذا السؤال الذي جوابه نعم. كما ورد في الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم .. عن عمرو بن ميمون رضي الله عنه قال : (مر النبي صلى الله عليه وسلم على امرأة تقرأ "هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ"، فقام يستمع ويقول:

---

1 – [النازعات: 34]

2 – [عبس: 33]

«نعم، قد جاءني»). وما دام الجواب معلوما، فقد انتقلت الفقرة مباشرة لتعرض علينا حال الكافرين فيها، وحال المؤمنين.

الفقرة الأولى من الآية2 إلى الآية 16.

محور الفقرة الأولى: تقرير الإيمان بالبعث، والجنة والنار.

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (3) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (4) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16) ﴾[1].

---

[1] - سورة الغاشية، الآيات 2 – 16.

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾[1].

معاني "الوجوه في العربية":

﴿ وُجُوهٌ ﴾. عُبر بالوجوه عن الذوات، لأن الوجه هو أهم ما في الإنسان، وهو الذي تظهر عليه الانفعالات؛ من الفرح، والحزن، والدهشة، والأسى، وغير ذلك، فإنه يتضح على قسمات الوجه.

ويطلق تعبير (وجوه) على عدّة معانٍ :

1 – مرّة نريد بها وجوه القوم أي وجهاؤهم:

فكما أن هناك وجهاء في شقّ الخير والسعادة، هناك أيضا وجهاء في عالم الشقاء والانحراف والانحطاط. والوجوه هي التي كانت سببا أساسيا في انحراف الأتباع، تلك الوجوه التي كانت مستكبرة في الدنيا؛ ستأتي يوم القيامة خاشعة، فيكون المعنى أنه في الغاشية سوف تظهر وجوه خاشعة، كما ستظهر وجوه عليها النعيم.

[1] – سورة الغاشية،الآية 2.

2 – ومرة عبر بالوجوه عن الذوات:

– وكلاهما صحيح–، وهو أن الوجه هو مرآة مشاعر الإنسان . فإذا أردت أن تعرف كل ما فيه، فكلّ ما فيه يظهر في وجهه: رضاه، وسخطه، وألمه، وحزنه، وحبّه، وأمله... فقراءة الكفّ خرافة وشرك بالله، والصحيح هو قراءة الوجه، لأن كلّ شخصية الإنسان تظهر في وجهه، فلا يحتاج الأمر إلا إلى قارئ حاذق، نوّر الله بصيرته، لذلك لما أراد القرآن بيان هذه الغاشية، جاء بالوجوه، لأنها الكاشفة عن المكنون. ففي الحياة الدنيا ينحصر هذا العلم بقراءة الوجوه في أشخاص محدّدين، لكن يوم القيامة، يصبح بصر كل واحد حديدا، قال تعالى في سورة ق: **(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)** [1]، فتظهر له كل الحقائق، فيصبح الكلّ حاذقا، ويعرف كيف يقرأ الوجوه.

الاعتماد على الوجه في التعرف على الشخص عبر التاريخ البشري.

كلنا يمكن أن يشكّل انطباعات أولية عن الآخرين في الثوانِي الأولى من اللقاء بهم، من خلال الوجه فقط، وهذه الانطباعات تؤثر في الحقيقة على

---

1 – [ق: 22].

قراراتنا فيما يتعلق بالثقة فيهم والتعامل معهم.

1 - اليونان وقراءة الوجه:

كان المفكرون اليونانيون منشغلين بما تعكسه وجوههم عن شخصياتهم.

2 - الصين وقراءة الوجه:

كانت الخاطبة في الحضارة الصينية القديمة تقوم بعملها من خلال مراقبة الفرد جيدًا ، بحيث تعرف مميزاته وجوانب القصور في شخصيته أيضًا وتستطيع بالتالي أن تختار زوجة ملائمة له.

3 – العرب وقراءة الوجه:

اشتهر العرب بالفراسة ، وتناقلوا قصصًا ونوادر لقدراتهم على التعرف على أخلاق الناس وطبائعهم فقط من النظر إلى وجوههم وأحوالهم.

روى ابن ماجه بسند صحيح عن عبد الله بن سلاّم رضي الله عنه قال: (لمَّا قدمَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ المدينةَ، انجَفلَ النَّاسُ قِبلَهُ، وقيلَ: قد قدمَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ، قد قدمَ رسولُ اللَّهِ، قد قدمَ رسولُ اللَّهِ ثلاثًا، فَجِئْتُ في النَّاسِ، لأنظرَ، فلمَّا تبيَّنتُ وجهَهُ، عرفتُ أنَّ وجهَهُ ليسَ بوَجهِ كذَّابٍ، فَكانَ أوَّلُ شيءٍ سَمِعْتُهُ تَكَلَّمَ بِهِ، أن قالَ: **"يا أيُّها النَّاسُ أفشوا السَّلامَ، وأطعِموا الطَّعامَ، وصِلوا الأرحامَ، وصلُّوا باللَّيلِ، والنَّاسُ نيامٌ، تدخلوا**

الجنَّةَ بسَلامٍ")[1].

في هذا الحديثِ يقولُ عبدُ اللهِ بنُ سلَامٍ رَضي اللهُ عنه : "لَمَّا قدِم"، أي: جاء وهاجَر "النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم المدينةَ، انجفَلَ النَّاسُ قِبَلَه"، أي: اتَّجَه النَّاسُ ناحيتَه وذهَبوا إليه مُسْرِعين، "وقيل: قد قَدِم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم، قد قدِم رسولُ اللهِ، قد قدِم رسولُ اللهِ ثلاثًا، فجِئتُ في النَّاسِ؛ لِأنظُرَ، فلمَّا تبيَّنتُ وجْهَه"، أي: رأيتُ مَلامحَه، "عرَفتُ أنَّ وجْهَه ليس بوجْهِ كذَّابٍ"؛ لِما يَبدو عليه مِن النُّورِ والجَمالِ والهَيبةِ الصَّادقةِ.

4 – قراءة الوجه في العصر الحديث:

في العصر الحديث يقترب الواقع من هذا التخيل من خلال علم **«السيكوجونومي»** (علم الفراسة) الذي تطوّر بحيث يستخدم اليوم الذكاء الاصطناعي لمعرفة ميول الأفراد من خلال ملامح وجوههم، وفي عام 1902م، نُشر كتاب «**القارئ العملي للشخصيات**»، وتضمّن أفضل تطبيقات علم الفراسة، وكان يقول بإمكانية معرفة كل شيء عن الشخص من خلال تفحّص ملامح وجهه.

وقد تغيرت هذه الفكرة في العصر الحالي، وأصبحت تعتمد على معايير

[1] – صحيح ابن ماجه، الألباني، ح 2648 . حديث صحيح.

أخرى أكثر تحديدًا، كما تقول "كارمن لوفيفر"، الباحثة بجامعة "نورثمبريا" في المملكة المتحدة: « في عالم الأحياء تؤثر الجينات ومستويات الهرمونات على النمو، وهي نفسها أيضًا تشكّل شخصيتنا».

وتقول "أليسيا سيلبا"، وهي استشارية دولية في قراءة الوجوه، وتعقد دورات في علم الفراسة: إن الوجوه تقول الكثير عن أصحابها، غير أننا لا نتمكن دائمًا من قراءتها، وأول ما تهتم به ، هو تعريف الفرد بكيفية قراءة وجهه هو أولا، وتقول: « إنه علم مفيد أولًا لمعرفة من أنت، وبمجرد أن تعرف، سيمكنك أن تعرف بالضبط ما تبحث عنه في الآخرين وتجده بالتالي، سواء كانوا موظفين أو شركاء أو أصدقاء أو شركاء في الحياة». ووفقًا ل"أليسيا"، فإن ملامح الوجه تمكّنها من معرفة ما سيكون عليه الشخص من طباع في المستقبل: « قد يكون شخص ما جريئًا في صغره، لكنه يصبح محافظًا جدًا حين يكبر».

ما الذي تقوله الوجوه؟

إن الوجوه لا تحمل فقط الجينات والهرمونات، إنها مرآة لشخصياتنا وشعورنا، كما تحمل التاريخ الطبي ، والحالة الصحية لأصحابها، فمقدار

الدهون في الوجه؛ يشير إلى الحالة الجسدية بشكل أفضل – ربما – من كتلة الدهون في الجسم كله، لذا يؤكد "بنديكت جونز" الباحث في جامعة "غلاسكو بإسكتلندا"، ضرورة فهم دور الدهون في جسم الإنسان جيدًا.

لون بشرة الفرد يحدد شخصيته

لون البشرة يشير إلى شخصية الفرد، وليس لهذا علاقة بالعِرق مثلًا، فهو يدل على الحالة الصحية، ونمط الحياة،

أ – اللون الذهبي الطفيف للبشرة

اللون الذهبي الطفيف للبشرة، يشي بأن الشخص يتمتع بصحة جيدة، فهو يعني تراكم الصبغات التي تدعى "الكاروتينات"، الموجودة في الخضروات والفواكه، وتساعد على تقوية جهاز المناعة، وتمكّن الجسم من محاربة الأمراض، ويمنح الوجه جاذبية جسدية تفوق ما تفعله صالونات التجميل.

ب – اللون الوردي للبشرة

اللون الوردي للبشرة، يدل على دورة دموية جيدة، وحياة نشيطة لصاحبها، ويكون حتى علامة على خصوبة المرأة.

حب الله ظهور أثر النعمة على العبد

روى الهيثمي عَنْ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي عَلْقَمَةَ رضي الله عنه قَالَ: **(رَأَى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم سَيِّئَ الْهَيْئَةِ فَقَالَ : أَلَكَ مَالٌ ؟ قَالَ: نَعَمْ ، مِنْ كُلِّ أَنْوَاعِ الْمَالِ ، قَالَ: فَلْيُرَ أَثَرُهُ عَلَيْكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ ، وَيَكْرَهُ الْبُؤْسَ وَالتَّبَاؤُسَ)**[1].

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: **(قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ مَخِيلَةٍ ، وَلاَ سَرَفٍ حَتَّى تُرَى نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى نِعْمَتَهُ عَلَى عَبْدِهِ)**[2].

وفي دراسة حديثة، التقطت مجموعة صور لعدد من المتطوعين، طُلب منهم في إحداها ارتداء أفضل ثيابهم، ورغم أن الصور التي تم التقاطها لم تُظهر الملابس، واكتفت بالوجه فقط، فقد استطاع الباحثون التعرف على ما كان يرتديه المتطوعون، لقد بدت على وجوههم الجاذبية ، وعلامات الثقة بالنفس حين كانوا يرتدون أفضل ثيابهم.

---

[1] – بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث بن أبي أسامة [186 – 282]، نور الدين الهيثمي [807]، المحقق : د. حسين أحمد صالح الباكري، الناشر : مركز خدمة السنة والسيرة النبوية – المدينة المنورة، الطبعة الأولى ، 1413 – 1992،(2/ 606) (ح 570).

[2] – بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (2/ 607) (ح 571).

يُستخدم هذا الأسلوب أكثر في المهن، مثل الباحثين عن الموظفين والمحللين والشرطة، وكشفت "كيث ولكر"، الباحثة في جامعة "بولدر"، بالولايات المتحدة مؤخرًا، العلاقة بين متوسط طول الوجه وعرضه لدى لاعبي كرة القدم في كأس العالم عام 2010م، ومتوسط عدد الأخطاء التي ارتكبوها.

يقول "توماس كينان" أستاذ التصميم البيئي وعلوم الكمبيوتر في جامعة "كالغاري"، بكندا: إن القانون لا يزال يعتبر وجوه الناس «معلومات عامة»، واللوائح لم تلحق بالتكنولوجيا بعد، فليس هناك قانون يعتبر استخدام وجه شخص ما في التعرف على معلومات عنه اختراقًا لخصوصيته.

أثر الغاشية على كل أبعاد الإنسان:

الغاشية أحد أسماء يوم القيامة، لأنها تغشي الإنسان وتحيط به من كلّ جهة، ولأن القرآن يتكلّم عن مصير الإنسان يوم القيامة، وعن ما سوف يؤول إليه وضعه، فقد بيّن ذلك اليوم، بتعبير الغاشية. وحتّى نقرّب معنى الغاشية أكثر، لنضرب هذا المثال: الإنسان يتلقّى خبرا يفرحه، أو خبرا يحزنه، فيغشاه هذا الخبر، بمعنى يستولي على كلّ كيانه، ويتسلّط على كلّ وجوده، ويهيمن عليه بشكل كامل. فالغاشية كذلك، هي تغشى الإنسان في كلّ أبعاده:

الحسيّة، والروحيّة، والإدراكية، لا أنها تتملّك جانبا واحدا من حيثيات الإنسان، كجوارحه فقط، أو مشاعره فقط، بل كلّ حيثيّاته، فيعيشها بكلّه، لا كما يعيش ألم إصابة في أحد أعضائه، هذا النوع من الألم؛ لا يغشاه في نفسه وروحه وإدراكه، فهو لا يزال يفكّر ويدرك مع وجود الألم، في حين أن الألم والوجع الذي يسيطر على الإنسان في يوم القيامة، يغشيّ ويغطّي كل جوانبه.

وبالمقابل كذلك الفرح والنور والغبطة والسرور التي تغشى الصالحين والصالحات من عباده يوم الغاشية.

حالة المصحوبين يوم الغاشية وأثرها على أتباعهم:

هذه الآية من سورة الغاشية تبيّن نافذة تعريف الغاشية، وهي أنها سوف تظهر على الوجوه.

أ – وجوه المصحوبين الأشرار وأثرها على الأتباع

إذا قلنا: إن المراد بكلمة (وجوه)، وجوه القوم المصحوبين: والثلّة الذين كان لهم تأثير في تحريك الناس نحو الباطل. فإنهم استحقوا بذلك الاختصاص في ذلك اليوم بظهور ما غشاهم من العذاب على وجوههم.

ب – وجوه المصحوبين الأخيار وأثرها على الأتباع

ويقابل وجوه الأشرار أناس مصحوبين كذلك في الدنيا، لهم موقع ووجاهة في جانب الخير والتحريك نحوه، لهذا استحقوا ظهور النعيم على وجوههم يوم الغاشية. فالصحبة مفتاح لكل شر، و مفتاح لكل خير كذلك.

هذا الفهم مقبول وليس ببعيد، والسرّ في ذلك، أنه في الدنيا، إذا أُكرم أو أُهين رموز قوم، فقد أهين كلّ القوم الذين هم أتباعهم. وإذا رأى قوم صالحون مصحوبهم مسرورا مبتسما فسيشاركونه جميعا السرور والابتسام، لأنه وجههم، وسعادته سعادتهم. وفي يوم القيامة، يوم الغاشية، تظهر وتبرز الروابط الواقعية، فإكرام الرموز أو إذلالها، هو إكرام أو إذلال للأتباع، وذلك لأنها غاشية، ولا تدع أحدا، وما يفعل بأحد الوجوه، سوف يؤثر على بقيّة أتباعه، كما أنه إذا غشي النعيم أو الشقاء وجوه قوم، فسوف يظهر على وجوه المرتبطين بهم. إذن فحديث الغاشية، حديث متجدّد، ومتطوّر وحادث، ومؤثر ومحرّك، ويشرق على النفس إشراقة جديدة، لأنه في الحقيقة كلام حول أهمّ ما يطلبه الإنسان وهو سعادته، وأهمّ ما يفرّ منه الإنسان وهو شقاؤه، فإذا ذلّت وجوه قوم وسيئت، وظهرت عليها معالم الخشوع، فقد شملت جميع أتباعهم، والعكس صحيح.

﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ** ﴾. في ذلك اليوم، الذي هو الغاشية.

الإنسان بين خشوع الإيمان وخشوع الذل والهوان.

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾. هذا بيان أثر الغشي يوم القيامة، وقد يقال: إن الخشوع شيء إيجابي، فكيف يوصف به المجرمون يوم القيامة؟ الخشوع الذي تتكلّم عنه الآية، هو خشوع الذلّة والمهانة. إذ تكون فيه هذه الوجوه ذَليلةٌ خاضِعةٌ من الخِزْي ، كما قال الله تعالى في سورة فصلت : ﴿ وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾[1]: أي هابطة. فالخشوع فيه معنى الذل، والخضوع، والهبوط. فوجوه الكافرين، والعياذ بالله، تكون ذليلة، منكسرة، مطأطأة. وليس المراد بالخشوع هنا الخشوع المحمود، من جنس قول الله تعالى من سورة المؤمنون: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾[2]، فإن الكافرين لما لم يقع منهم خشوع في الدنيا ، فاستكبروا وعتوا عتوا كبيرا، وقع عليهم الخشوع في الآخرة. وأهل الإيمان لما خشعوا لله تعالى في الدنيا اختياريا ، نضر الله وجوههم في الآخرة، والله عز وجل لا يجمع على عبد بين مخافتين، ولا يجمع له بين أمنين؛ فمن أمّنه في الدنيا، أخافه في الآخرة، ومن خافه في الدنيا، أمّنه في الآخرة.

---

[1]– سورةفصلت، الآية 39.

[2] – سورةالمؤمنون، الآية2.

1 – مفهوم الخشوع لغة واصطلاحا:

أولًا: المعنى اللغوي للخشوع:

ابن فارس: جاء في مقاييس اللغة، لابن فارس: الخاء والشين والعين، أصلٌ واحدٌ، يدل على التّطامن، يقال: خشع إذا تطامن وطأطأ رأسه، ويخشع خشوعًا، والخاشع: المستكين والراكع[1].

ابن منظور: وفي لسان العرب لابن منظور: خشع يخشع خشوعًا، واختشع وتخشّع: رمى ببصره نحو الأرض، وغضّه، وخفض صوته، وقيل: الخشوع قريب من الخضوع، إلا أن الخضوع في البدن. والخشوع: في البدن، والصوت، والبصر، كقوله تعالى في سورة طه:**(وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا)**[2]، أي: سكنت، وكل ساكن خاضع خاشع[3].

الراغب الأصبهاني: وعند الراغب الأصفهاني: الخشوع الضراعة، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح، والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب[4].

---

1 – مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/١٨٢.

2 – [طه: 108]

3 – لسان العرب، ابن منظور ٨/٧١.

4 – المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٨٣.

ابن القيم: وابن القيم رحمه الله حينما يعرف الخشوع في اللغة، يجمع بين هذه الأقوال في إيجاز فيقول مستشهدًا على كلامه بآيات القرآن الكريم:

الخشوع في أصل اللغة: الانخفاض، والذّل، والسكون، قال الله تعالى في سورة طه : **(وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا)**[1]، أي: سكنت، وذلّت، وخضعت، ومنه وصف الأرض بالخشوع، وهو يبسها، وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالري والنبات، قال الله تعالى في سورة فصلت: **(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ)**[2].

من هنا يتبين أن الخشوع في اللغة يدور حول: غض البصر، وخفض الصوت، والضراعة، والسهولة واللين، والخضوع والانخفاض، والذل والسكون.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي للخشوع:

ذكر العلماء للخشوع في الاصطلاح أكثر من تعريف، وهي متقاربة تدور حول خشوع القلب وخضوعه بين يدي الله عز وجل:

1 – الجرجاني: قال الجرجاني في التعريفات: وفي اصطلاح أهل الحقيقة:

---

1 – [طه: 108]

2 – [فصلت: 39]، مدارج السالكين، ابن القيم ، 1/ 520

الانقياد للحق، وقيل: هو الخوف الدائم في القلب[1].

2 – ابن القيم: وقيل هو: قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذّلّ.

3 – وقيل: الخشوع تذلّل القلوب لعلاّم الغيوب[2].

4 – ابن رجب: وقال ابن رجب الحنبلي[3]: وأصل الخشوع: هو لين القلب ورقته، وسكونه، وخضوعه، وانكساره، وحرقته، فإذا خشع القلب، تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء؛ لأنها تابعة له، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم: **(ألا وإنّ في الجسد مضغةً، إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب)**[4].

5 – السعدي: وقال السعدي في تيسير اللطيف المنان: وأما الخشوع، فهو حضور القلب وقت تلبّسه بطاعة الله، وسكون ظاهره وباطنه[5].

6 – ابن حجر: ولعل أشمل التعاريف ما ذكره ابن حجر بأنه: معنى يقوم

---

1 – التعريفات، الجرجاني، ص132.

2 – مدارج السالكين، لابن القيم، 521/1.

3 – الخشوع، ابن رجب ص17.

4 – أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم 52، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة والمزارعة، عن النعمان بن بشير، رقم 1599.

5 – تيسير اللطيف المنان، ص 361 –362.

بالنفس يظهر عنه سكون في الأطراف، يلائم مقصود العبادة[1].

7 – محمد سيد طنطاوي: وقريب منه قول صاحب التفسير الوسيط إنه: خشية في القلب من الله تعالى، تظهر آثارها على الجوارح، فتجعلها ساكنة مستشعرة أنها واقفة بين يدي الله سبحانه[2].

ويلاحظ أن كلا المعنين: اللغوي والاصطلاحي يدوران حول الذل والانكسار، إلا أن المعنى الاصطلاحي خص بالذل والانكسار لله تعالى.

ثالثا: الخشوع في الاستعمال القرآني

وردت مادة (خشع) في القرآن الكريم (18) مرة[3]. والصيغ التي جاءت هي:

1 – الفعل الماضي: مرة واحدة، قال تعالى في سورة طه: **(وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا)**[4].

2 – الفعل المضارع: مرة واحدة، قال تعالى في سورة الحديد: **(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ**

---

[1] – انظر: فتح الباري 3/ 101.

[2] – الوسيط، محمد سيد طنطاوي 12/10.

[3] – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص233.

[4] – [طه: 108]

آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ)[1].

3 – المصدر: مرتان، قال تعالى في سورة الإسراء :(وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا)[2].

4 – اسم الفاعل: 14 مرة ، قال تعالى في سورة الحشر : (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)[3].

رابعا: أوجه الخشوع في القرآن.

جاء الخشوع في القرآن على أربعة أوجه[4]:

1 – التواضع: ومنه قوله تعالى في سورة البقرة: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)[5]، يعني: المتواضعين.

2 – سكون الجوارح: ومنه قوله تعالى في سورة المؤمنون: (الَّذِينَ هُمْ فِي

---

1 – [الحديد: 16]

2 – [الإسراء: 109].

3 – [الحشر: 21]

4 – انظر: نزهة الأعين، ابن الجوزي ص 276 –277، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص 206–207.

5 – [البقرة: 45]

صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)[1].

3 - الخوف: ومنه قوله تعالى في سورة الأنبياء: **(إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)**[2]، يعني:خائفين.

4 - الذل والهوان: ومنه قوله تعالى في سورة الغاشية: **(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ)**[3]، يعني: ذليلة ومهانة.

خامسا: أسباب خشوع الإيمان

الخشوع الذي هو الخوف والخضوع والتذلل، الذي يظهر على الجوارح لا يتأتى من فراغ، وإنما يكون منشؤه عدة أسباب أشار إليها القرآن الكريم خلال الحديث عن ذلك، وهذه الأسباب هي ثلاثة:

أولا: الخوف من الله عز وجل.

ثانيا: سماع مواعظ القرآن وتدبرها.

ثالثا: ذل العذاب لأهل النار يوم القيامة، وهذا يدعونا لأن نفصل الحديث

---

1 - [المؤمنون: 2]

2 - [الأنبياء: 90]

3 - [الغاشية: 2]

عن هذه الأسباب فننظمها في النقاط الآتية:

1 – الخشوع بسبب الخوف من الله تعالى:

أول أسباب الخشوع هو الخوف من الله عز وجل، والخوف من الله لا يتوفر إلا لمن عرف ربه عز وجل بأسمائه وصفاته، حينها يتولد في النفس استحضار عظمة الله ودوام مراقبته ومعيته، واستحضار عظمة الخالق يثمر في القلب طاعة الله وتوقيره والذل والانكسار له في كل اللحظات، ويعلم المؤمن الحياء من الله لإيقانه بوجوده ومعيته وقربه وسمعه وبصره. قال تعالى في سورة الحديد: **(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)**[1]. ومن يتعود مراقبة الله في كل أقواله وأفعاله يوفقه الله إلى خشيته وخشوعه والخوف منه دائمًا أبدًا، حتى يصل في عبادته إلى درجة الإحسان، الذي قال عنه رسولنا صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخاري ومسلم: **(أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)**، كما في حديث جبريل[2].

1 – [الحديد: 4]

2 – أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة لقمان، رقم 4499، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم 9–10.

2 – الخشوع بسماع مواعظ القرآن وتدبرها:

من الأسباب التي تحمل المسلم على الخشوع في الدنيا، سماع آيات القرآن بنية صادقة، في قلب نقي خالص مخلص لله سبحانه، وتدبر آياته للانتفاع بأحكامه وحكمه ومواعظه وعبره.

ففي وصف من آمن من أحبار أهل الكتاب في سورة الإسراء يقول الله تعالى في سورة الإسراء: **(إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا)**[1]. قال الطاهر بن عاشور رحمه الله في تفسيره التحرير والتنوير: (والبكاء يحصل من انفعال باطني ناشئ عن حزن أو عن خوف أو عن شوق، ويزيدهم القرآن خشوعًا على خشوعهم الذي كان لهم من سماع كتابهم)[2].

ويبين الله عز وجل ما يجب أن يكون عليه القلب من خشوع بسبب ذكر الله وسماع آيات القرآن في سورة الحديد في قوله تعالى: **(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**

---

1 – [الإسراء: 107 – 109]

2 – التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 233/15.

3 – [الحديد: 16].

مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)[1]، قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: يقول تعالى: (أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه)[2].

من هنا كان الخشوع مصدرًا لهداية المسلمين الوقّافين عند أوامر ربهم وحدوده. وتدبر القرآن من أعظم أسباب الخشوع، وذلك لما تشتمل عليه الآيات من وعد ووعيد، وذكر الموت والتذكير به، وأهوال القيامة، وأحوال أهل الجنة والنار، وقصص الأنبياء والرسل عليهم السلام وما لاقوه من قومهم من صنوف الإيذاء، وأخبار المكذبين والمتكبرين ونهايتهم،... إلى آخر كل ذلك، وهذا كله حينما يتدبره المسلم في قراءته يمتلئ قلبه بنور الإيمان وصدق التوكل فيخشع لربه، بل ويعتاد الخشوع.

إذن فعلى من يريد أن يصل إلى درجة الخشوع، أن يتدبر آيات القرآن الكريم، وكيفية التدبر أن يقرأ الآيات بتأمل وتفكر وعناية، حتى يصلح قلبه ويأتمر بأوامره وينتهي بنواهيه.

---

[2] – تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 19/8.

وسائل تدبر القرآن لتحقيق الخشوع في القلب

هناك وسائل للوصول إلى تدبر القرآن منها:

- إدراك القارئ بأنه مخاطب بالقرآن وآياته،
- الاهتمام بالتأني في التلاوة،
- التعرف على أسباب النزول، ومواضع الوقف والابتداء، والمكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه.
- معرفة المعنى الإجمالي للآيات.
- الاهتمام بالقراءة الشمولية لآيات القرآن وقصصه وحواراته.
- الاهتمام بالمناسبات والروابط بين الآيات والسور.

3 – الخشوع من ذل العذاب.

من الأسباب الموجبة للخشوع، ذل عذاب الكفار والمنافقين، وهذا الخشوع هو الذي يقع يوم القيامة، وهو الذي يكون لونًا من ألوان عذابهم، وحينها لا يقع منهم اختيارًا، وإنما يكون إجبارًا، وهذا اللون من الخشوع يختلف عن الخشوع

الذي يقع من المؤمنين في الدنيا، وقد ورد هذا في أكثر من آية من الآيات التي تتحدث عن الخشوع، ففي سورة الشورى يقول الله عز وجل: **(وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ، يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ)**[1]، قال الطاهر ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير في وصف الظالمين المشركين يوم القيامة: (والمراد بالخشوع في هذه الآية: ما يبدو عليهم من أثر المذلة والمخافة، و«من» للتعليل، أي: خاشعين خشوعًا ناشئًا عن الذل، أي: ليس خشوعهم لتعظيم الله والاعتراف له بالعبودية؛ لأن ذلك الاعتقاد لم يكن من شأنهم في الدنيا)[2].أي: ذليلة، قاله قتادة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تخشع ولا ينفعها عملها)[3]. أما المسلم، فإذا أدرك ذلك حقًّا، اجتهد في دنياه، وفي وقت العبادة خاصة، بالتذلل لله عز وجل، فينحني بظهره وجبهته لله سبحانه، يحسن التفكر في عظمة الله وكبريائه وسلطانه وملكوته، ويتذكر ذنوبه وتقصيره في حق ربه، فيتذلل بفقره ويظهر احتياجه لله وحده قائلًا: **(اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي)**[4]. والمسلم الذي يجتهد في دنياه ليحصل هذا الخشوع

---

1 - [الشورى: 45]

2 - التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 126/25.

3 - تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 312/8.

4 - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل

ويعتاده بين يدي ربه عز وجل، يجنبه الله خشوع الذل في الآخرة، وخشوعه في الآخرة يكون خشوع تكريم.

إذن نستطيع أن نقول: إن معرفة ذل العذاب الذي يلحق المنافقين والكفار والمشركين في الآخرة، وتدبر ذلك، سبب يدفع المسلم إلى بذل الجهد في الخشوع والتذلل لله في الدنيا، وتعظيمه حق قدره ومقداره، والخوف الدائم له سبحانه عله يجنبه خشوع الآخرة.

والتذلل في الصلاة واستحضار القرب من الله في السجود، من الأسباب التي تدفع المسلم إلى الخشوع والاستكانة والتذلل لله، وخاصة حال السجود؛ لأنه أعلى درجات الاستكانة، وأبرز حالات الخضوع لله القوي القاهر. وأشد أوقات القرب من الله عند المسلم هي أوقات السجود، ففيه يستحضر القلب معنى القرب من خالق الخلق، وحين ينتاب المسلم في صلاته وسجوده هذا الشعور يخضع ويخشع.

والسجود أقرب وقت، وموضعه أقرب موضع لإجابة الدعاء، ومغفرة الذنوب ورفع الدرجات. قال تعالى في سورة العلق: **(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)**[1].

إذن فالتذلل في الصلاة، واستحضار القرب من الله في السجود، سبب موصل

وقيامه، رقم 771.

1 - [العلق: 19]

إلى خشوع العبد لربه وخالقه، ومجنبًا إياه ذل عذاب الآخرة، بل هو رافع بمشيئة الله درجاته فيها.

نستخلص مما سبق، أنه لا يقصد في هذه الآية خشوع العبادة المحمود، وإنما يقصد الخشوع المذموم، خاشعة أي ذليلة مهانة، والخشوع لله سبحانه وتعالى معناه الذلة لله سبحانه وتعالى، لأنه كلما خضع الإنسان لله سبحانه وتعالى في الدنيا طواعية، ازداد عزة وازداد رفعة، لأن هذا الإنسان لا يصلح أن يكون عبداً لاثنين، فالعبودية منطقياً تكون لواحد، فعندما يخضع الإنسان ويكون عبداً لله سبحانه وتعالى، ويكون أقرب لربه وهو ساجد، حيث يمكن جبهته وأنفه من التراب، وهذه الوضعية تعبر على أذلّ حالة للإنسان، ولا تليق إلا في حق الله سبحانه وتعالى الأعلى، لهذا قال بعضهم: هذا الإسلام عجيب، فما في الدنيا، و لا في التاريخ عندما نقرؤه، أكثر اعتزازاً بالنفس من العربي، ابن الصحراء، فهو معتدّ بنفسه حتى قيل: لما علم كسرى بهذه الصورة من العرب، عمل باباً منخفضاً حتى يجعل العربي يدخل باتجاهه، وهو منحنيا، و جلس كسرى على عرشه أمام الباب، والحرس من هنا ومن هنا، و لما جاء الأعرابي فنظر أنه لا بد أن ينحني، وطبعه يرفض هذه الوضعية المهينة، استدار بظهره، ودخل بظهره على كسرى حتى لا ينحني له. وهذا عمرو بن كلثوم الذي قتل من أجل أن أمه صرخت واذُلاّه، فقتل

الملك!. فهذا الاعتداد بالنفس، وهذه العُنجُهية ، عند العرب الذين كانوا يصلّون بالصفير والتصفيق لآلهتهم، جاء الإسلام فمنع كل أنواع السجود للبشر ولو للنبي، وأمرهم بوضع نواصيهم للتراب تذللا لله سبحانه وتعالى، ليكون الوجه الذي هو أشرف عضو في الإنسان على وجه الأرض. هذه الذلة لله سبحانه وتعالى، تعد رفعة وعزا، لهذا فإن الخشوع لله سبحانه وتعالى غير الخشوع يوم القيامة.

﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾[1].

أي أصحاب هذه الوجوه، وهم الكفار، يكلفون الأعمال الشاقة في النار؛ من جر السلاسل، والأغلال التي تكون في أعناقهم, وهذا أشد ما يكون من الحبس، حتى في الدنيا، إذا أرادوا أن يُغْلظوا في عقوبة الحبس، يقولون: مع الأشغال الشاقة، قال تعالى في سورة غافر :﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾[2].

﴿ نَاصِبَةٌ ﴾.أي ذات نصب، من النصب وهو التعب، تَعِبَةٌ ممَّا تُلاقِيه في النار من العذاب.

[1] – سورة الغاشية، الآية 3.

[2] – سورة غافر، الآية 71.

1 – أي مجهدة ومستمرة في العمل الذي يتعبها ويشقيها في النار، و هذه الآية في الكفار، يتعبون ويشقون بسبب جر السلاسل والأغلال ، والصعود والهبوط في تلالها ودركاتها، وهذا جزاء تكبرهم في الدنيا عن عبادة الله، وعدم الخشوع له، وانهماكهم في اللذات والشهوات.

2 – ويراد كذلك أنها قد عملت عملا كثيرا في الدنيا من عبادات، ونصبت فيه، ونظرا لكون ذلك العمل لم يكن خالصا لله، وموافقا لفعل الرسول صلى الله عليه وسلم، دخلت يوم القيامة نارا حامية . روى الحافظ أبو بكر البرقاني عن جعفر قال: سمعت أبا عمران الجوني يقول: **(مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدار راهب، قال: ناداه: يا راهب، فأشرف، قال: فجعل عمر ينظر إليه ويبكي، فقيل له: يا أمير المؤمنين ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله عز وجل في كتابه: "عامِلَةٌ ناصِبَةٌ* تَصْلى ناراً حامِيَةً"، فذاك الذي أبكاني)**. وقال البخاري رحمه الله: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ("عامِلَةٌ ناصِبَةٌ" : النصارى) ، و تخصيصها بالنصارى، ذكر لبعض ما يدخل فيها، فكل عاملة ناصبة في زعمها بعبادتها لله دون أن تكون عبادتها صحيحة منبثقة عن عقيدة صحيحة فإنها تدخل في الآية.

3 – ويراد كذلك عاملة في الدنيا بالمعاصي، ناصبة في النار بالعذاب والإهلاك.

هذه الآية تبين سبب خشوع تلك الوجوه، فلماذا تخشع هذه الوجوه؟ هل لأنها تركت العمل وأهملته في هذه الدنيا؟ الصحيح هو العكس.. لأنها عاملة! هذه الذلّة التي تعتري تلك الوجوه، وهذا الخشوع الذي يغشاهم من كلّ جانب، في جوارحهم، وأرواحهم، وإدراكهم، وفكرهم.. سببه ليس أنهم لم يعملوا، بل بالعكس، لأنهم عملوا، لكنهم عملوا ضدّ الحق.

الرابط بين عاملة وناصبة

هناك رابط بين (عاملة) و (ناصبة): الإنسان الذي يعارض الحقّ في هذا الكون، وينصّب نفسه بديلا لأهل الحقّ، لكي يحافظ على موقعه، عليه دائما أن يعارض الحقّ وأهله وبشكل مستمرّ، ويبذل كلّ ما بوسعه من طاقات وجهود لموارة الحقّ وإخماده. وهذه إشارة لطيفة تتعلّق بقصة إخوان يوسف، فإخوان يوسف لما جاؤوا وقالوا لأبيهم: إن يوسف أكله الذئب، كانت هذه كذبة واحدة، هذه الكذبة جرّت وراءها عمرا من الكذب، لأن الناس سيسألونهم، كيف أكل الذئب يوسف؟ وسيحتاجون لكذبة ثانية، ثم سيسألونهم: أين كنتم حين أكله الذئب؟ وسيكذبون ثالثة، وهل دافع أحد منكم عنه؟ وسيخترعون كذبة رابعة، وهكذا .. من يكذب كذبة واحدة سيبقى يكذب إلى ما لا نهاية، ومن يأتي بدعوى باطلة سيضطرّ أن يأتي بدعاوى باطلة بلا حدّ ليرفدها

ويسندها، وسيؤدّي به ذلك للانحراف عن الحقّ .

وهذا الكون قائم على سلاسل مترابطة من الحقّ، ومن يقوم بتحريف حلقة من حلقات الحقّ، فسيحرف معها حلقات السلسلة كلّها، لأن هذا الكون متّصل مترابط. والإنسان الذي ينحرف عن الحقّ إلى الباطل سيجد نفسه مضطرّا لكي يعيش، أن يدعم الباطل ضدّ الحقّ طوال حياته. ولذلك كانت هذه الوجوه عاملة، يستحيل أن تترك العمل، لأنها ما أن تغفل أو تترك العمل، حتّى ينكشف للناس أنها باطل، فكلّ حقيقة تجرّ إلى حقيقة، وكلّ باطل يجرّ إلى باطل، والكون قائم على هذا النظام.

والإنسان الذي يدور الحقّ معه أينما دار، هل يمكن أن يعترف مخالفه بحقيقة واحدة؟ وهي: أين يدور هذا الذي يخالف شخصا يدور الحقّ معه حيثما دار؟ يجب أن يخترع له باطلا يدور حوله، ويصطنع له باطلا بعد باطل، وسيكدح ويتعب في سبيل ذلك.. سيفتح المؤسسات والمدارس، ويدفع الأموال ويلقي الخطابات، فهو مضطرّ للعمل ليسدّ الثغرات والفجوات، لذلك، هذه الوجوه خاشعة، لأنها عاملة، وما عملته أدّى إلى ذلّتها.

والمعنيون في هذه الآية هم الذين يعملون ضد القرآن الكريم، والهدي النبوي، فهم ليسوا ناصبة فقط، بل عاملة ناصبة ، ولا يريدون أن يكتشف الآخرون أنهم على باطل، فهم مضطرون أن يزيدوا في العمل، ويبالغوا في

المظاهر والادعاءات، فتجد الواحد منهم ينفق كلّ طاقته، لذلك كانت الصيغة مستمرة (عاملة)، فكلّ شؤونه عمل،لأنه لا يريد ترك ثغرة لأهل الحقّ يمكن أن يظهروا منها. مثله مثل المرابط على جبهة الباطل، ويتصدّى لمواجهة الحقّ، هذا بشكل دائم، يجب أن يخترع خططا جديدة، وفنونا جديدة، وباطلا جديدا، وعبر التاريخ يزداد هذا الباطل ويشتدّ.

مثل هذا الإنسان نسميه (عامل) لكن عمله ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾، أعمال هؤلاء ستعود ذلة وعذابا عليهم، لأنهم انحرفوا عن الحقّ في محور أساسي. هم مضطرّون لأن يقوموا بأعمال كثيرة، وينفقوا أموالا كثيرة، لأنه في كلّ فجوة ليس لهم فيها عمل، سوف يظهر حقّ. هؤلاء مع كلّ ما عملوه من أعمال ظاهرها وقشرها موافق للدين وللشريعة. هذه الأعمال من حيث الباطن سوف تؤدّي إلى إذلالهم، و سيغشاهم العذاب من كلّ جهة، والوصف الإلهيّ المناسب لأعمال هؤلاء أنها لا تسمن ولا تغني من جوع.

﴿ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾[1].

﴿ تَصْلَى ﴾: بفتح التاء، أو بضمها "**تُصلى**" قراءتان، تدخُلُ أو تُقاسِي.

[1] – سورة الغاشية ، الآية 4.

﴿ نَارًا حَامِيَةً ﴾: كلّ نار حامية، والداعي لوصفها بالحامية، لأنه سبحانه يريد أن يقول: هذه النار التي ترونها حامية، ليست بحامية حقا بالمقارنة مع نار الآخرة، لهذا فالنار الحامية هي النار التي تغشى الأفئدة، نارًا تناهَى حَرُّها. أي شديدة الحرارة. فهي تحرق في النار، والعياذ بالله، فتحترق بها. أي تدخل نارا مسعرة شديدة الحر، قد حميت مددا طويلة. فلا حر يعدل حرها، فهي تتلظى على أعداء الله. وهذا جزاؤها مع ما عملت من الصوم الدائب والتهجد الواصب في الدنيا، فليعرف من لم يعرف، أنه لا بد من الاعتقاد الخالص، والعمل الصواب، الموافق لفعل الرسول صلى الله عليه وسلم. حتى لا يحشر مع هذا الصنف.

﴿ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾[1].

﴿ تُسْقَى ﴾: الساقي ملائكة العذاب.

﴿ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾: العين الآنية: هي المتناهية في الحرارة، التي بلغت في الغليان غايته. وقيل في معنى ﴿آنِيَةٍ﴾: أي حاضرة، يعني، كأن هذا الماء بمجرد ما يطلبونه، يكون مهيئاً، كما وصف الله في سورة الكهف: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ

[1] – سورة الغاشية،الآية 5.

يَشْوِي الْوُجُوهَ..﴾[1]،فكلما بلغ منهم العطش مبلغه، و استسقوا، أُتوا بالماء في حينه، فما إن يقربوه إلى أفواههم، حتى تسقط جلدة وجوههم فيه، وذلك لشدة حرارتها، أجارنا الله وإياكم.

﴿ **لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ** ﴾[2].

﴿ **ضَرِيعٍ** ﴾: شيءٍ في النار ، كالشَّوكِ مُرّ مُنْتِنٍ.

لما ذكر تعالى الشراب، ذكر الطعام، وهو الضريع: وهو نبات من الشوك، تعرفه العرب، ليس فيه ورق، وتعافه الدواب. فسماه الله تعالى بهذا الاسم، لدلالته على معنى سوء، وتسميه العرب الشُّبرُق، واليابس منه هو

الضريع، وقيل: إنه شجر من نار. فالله أعلم بكيفيته، لكنه الطعام المتاح لهم؛ فيقع لهم من الأذى، من جراء تجرعه، الشيء العظيم. وهو مِن شر الطعام وأخبثه، لا يُسْمن بدن صاحبه من الهُزال، ولا يسدُّ جوعه ورمقه.

والمعذبون أنواع:

1 – فالآثمون طعامهم الزقوم.

2 – والضالون طعامهم الضريع.

---

[1] – **سورة الكهف، الآية 29.**

[2] – سورة الغاشية،الآية 6.

3 – والخاطئون طعامهم الغسلين. وهكذا يتنوع العذاب.

﴿ **لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ** ﴾[1].

الآية دقيقة. بحيث أنه يوجد طعام لا يسمن، كما أنه لا يغني من الجوع، وتعبير لا يسمن ولا يغني من جوع فلسف أعمال هؤلاء. ومع هذه النتيجة المرعبة فهم يكدحون ويعملون، فهم ينصبون ولا يرتاحون من العمل، وجعلت نفسها دائما في مورد المتابعة والملاحقة والمراقبة، وهي مضطرّة أنها تعادي وتبغض كلّ حقيقة في هذا الكون. وطعام هؤلاء يوم القيامة لا يفيد من جانب القوة والسمن في البدن ، فهو لا يَدفَعُ عنهم جُوعًا بالنسبة لآكله، إذ ليس من شأنه الإسمان والإشباع، كما هو شأن طعام الدنيا، وقد روي أنه يسلط على أصحاب النار الجوع، بحيث يضطرهم إلى أكل الضريع، فإذا أكلوه يسلط عليهم العطش فيضطرهم إلى شرب الحميم، فيشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم، فمنفعتا الغذاء منتفيتان عن الضريع ، وهي إماطة الجوع، وإفادة السمن في البدن، لهذا فإن طعام أهل النار، لا يحصل به مقصود، ولا يندفع به محذور . فهم دائما في حالة جوع، ولأنهم دائما في حالة جوع، فهم دائما في حالة طلب، وفي حالة أكل، لذا هم دائما في حالة عذاب وألم. وهذه هي نهايتهم.

ولما ذكر سبحانه حال الأشقياء أهل النار، أتبعه بذكر حال السعداء أهل

---

[1] – سورة الغاشية،الآية 7.

الجنة، لأن بالأضداد تتمايز الأشياء، وما أعظم النقلة بعد هذا المشهد الرهيب، وبعد هذا العذاب الوبيل، الذي دل على النكد الحسي، والمعنوي، إلى صورة مقابلة على النقيض تماماً فقال سبحانه:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾[1].

﴿ وُجُوهٌ ﴾. تلك وجوه المؤمنين، فعبر بالوجه عن الذات، لكون الوجه هو مظهر الفرح، أو الحزن، والبؤس، أو النعيم.

﴿يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ : ذاتُ بهجةٍ وحُسنٍ ونَضارةٍ. كما قال الله تعالى في سورة عبس: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾[2]. أي وجوه المؤمنين يوم القيامة ناعمة ذات بهجة وحسن، وإشراق ونضارة، وكقوله تعالى في سورة المطففين: **(تعرف في وجوههم نضرة النعيم)**[3].

السر في إطلاق صفة النعيم في الآية

[1] – سورة الغاشية،الآية 8.

[2] – سورة عبس، الآية 38.

[3] – سورة المطففين،الآية 34 .

هناك لفتة رائعة في الآية، وهي إطلاق النعيم. فالقرآن لم يخبر ناعمة في أيّ شيء؟ لم يقل ناعمة في معيشتها الماديّة، أو ناعمة بسبب ما تأكل وما تشرب، وإنما أطلق النعيم، ليقول: إنها من كلّ جهة ناعمة. فكما أن أولئك يغشاهم العذاب من كل جهة ، فهؤلاء يغشاهم النعيم. فهم روحيّا ناعمون، وإدراكيّا ناعمون، وجسديّا ناعمون، قال تعالى في سورة المطففين : ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [1]. الإنسان قد يكون ناعما في حياته الماديّة: قصر وخدم وراحة.. لكنه يعيش مشكلة أخلاقيّة، أو أزمة نفسيّة، أو اجتماعية، فنعيمه غير مطلق، ولا يغشاه من كلّ مكان، بل يأتيه فقط من جهة وضعه الاقتصاديّ الماليّ، ووضعه الاجتماعيّ من ناحية احترام الناس له. النعيم لا يقتصر على المادّيّات، هناك أيضا لذائذ عقليّة كالعلم. فطالب العلم يسمع مطلبا علميّا من أستاذه، فيعيش حالة نعيم قد تمتدّ لسنوات، لم يتغيّر عليه المكان ولا الجو ولا الظروف، وإنّما حدث التغيير في الإدراك.

إذن نعيم هؤلاء مطلق، وهو نعيم يشمل جميع شؤون الإنسان، وهي وجوه إذا نظرنا إليها عرفنا فيها نضرة النعيم، لأنها تعيش النعيم في كلّ منافذها الوجوديّة.

---

[1] - [المطففين 24]

﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾[1].

﴿ لِسَعْيِهَا ﴾: أي لعملها الذي عملته في الدنيا، وطاعتها لله.

﴿ رَاضِيَةٌ ﴾: مطمئنة، لأنه خالص لله وصواب، ولأن هذا العمل أورثها الفردوس دار المتقين، وحامدة لثوابه في الآخرة، فهي قد سعت في الدنيا، وحمدت سعيها في الآخرة .

الكلام الآن عن المنعّمين السعداء، عن العاقبة الحسنة والنعيم الوافر والسعادة الأبديّة، وبيان مبرّر هذه النهاية الحتميّة.

ميزة القرآن الكريم، أنه عندما يذكر نتيجة، فإنه يقدّم البرنامج العمليّ والمبرّر الواقعيّ والمنطقيّ لهذه النتيجة. فالقرآن كتاب روعيت فيه أساليب التعليم المنطقيّة والواقعيّة، ومن أساليب التعليم، أنك إذا أثنيت على عمل ما، أو قبّحته، فعليك أن تبيّن السبب الداعي للتقبيح أو التحسين. هذا أسلوب تربويّ وعلميّ، فعندما تريد أن تأمر أو تنهى طفلا مثلا؛ أو تريد أن تربّي إنسانا؛ اشرح له العلل، فالحكم يدور مع العلة حيث دارت وجودا وعدما كما يقول علماء الأصول، والمنطقية جزء من وجود الإنسان. وأسوأ مناهج التربية أن يسلك المربّي طريقة الفتاوى، افعل.. لا تفعل، قل.. لا تقل .

---

[1] – سورة الغاشية، الآية 9.

والقرآن لا يتبع هذا المنهج ، فعندما يمدح القرآن فئة من الناس، تجده مباشرة يأتي بالعلّة والمقتضي والدافع لهذه النتيجة، فعندما ذكر الوجوه التي يعلوها خشوع الذلّة والمهانة، يعلل ذلك ويقول: لأنها كانت ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾. ثم عندما انتقل إلى شقّ السعادة والسعداء، بيّن القرآن العلة في هذه السعادة، وعرض البرنامج العمليّ، والدافع والمبرّر المنطقيّ الذي أوصلهم إلى هذه السعادة.

فهذه الآية رائعة في كل أبعادها، بعدها العقليّ، والفلسفيّ، و بعدها العرفانيّ، وبعدها اللفظيّ واللغوي. يقول تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ لماذا هي ناعمة ؟! لأنها ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾، والملاحظ أنه لم يقل: لعملها راضية، وإنما قال: لسعيها راضية، فما هو معنى السعي ؟

الفرق بين السعي والعمل في حياة الطائعين والعصاة

1 – معنى السعي في اللغة

تفيد معاجم اللغة أن لفظ (السعي) يدل على:

أ – **المشي السريع**: وهو دون العدو.

ب – **الجد في الأمر**: خيراً كان أو شراً، ويقال: سعى به إلى فلان: إذا شكاه

ونما به. وأكثر ما يستعمل (السعي) في الأفعال المحمودة.

ج – العمل : و(السعي) في كلام العرب: العمل، يقال: فلان يسعى على أهله، يعني: يعمل فيما يعود عليهم نفعه. وخُص المشي فيما بين الصفا والمروة بالسعي، وخُصت السعاية بالنميمة، وبأخذ الصدقة، والمساعاة بالفجور، والمسعاة بطلب المكرمة.

2 – موارد السعي في القرآن

لفظ (السعي) ورد في القرآن في ثلاثين موضعاً:

* **ورد في عشرين موضعاً بصيغة الفعل** ، من ذلك قوله تعالى من سورة الإسراء: **(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا)**[1]،

*وورد في عشرة مواضع بصيغة الاسم، من ذلك قوله تعالى من سورة الصافات: **(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ)**[2]. ولفظ (السعي).

3 – معاني السعي في القرآن

---

1 – [الإسراء: 19].

2 – [الصافات: 102]

ورد السعي في القرآن الكريم على ثلاثة معان:

المعنى الأول: المشي: يُطلق السعي على المشي، من ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: **﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾**[1]، أي: يأتينك مشياً على أرجلهن. ونحو ذلك قوله سبحانه في سورة الصافات: **﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾**[2]، أي: المشي معه، روي هذا عن قتادة وغيره.

المعنى الثاني: الإسراع والحرص وبذل العزم: يُطلق السعي على الإسراع والحرص وبذل العزم لتحصيل شيء، ومنه قوله تعالى في سورة عبس: **﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾**[3]،

- **قال ابن كثير:** أي: يقصدك ويؤمك ليهتدي بما تقول له.

- **وقال الشوكاني:** أي: وصل إليك حال كونه مسرعاً في المجيء إليك، طالباً منك أن ترشده إلى الخير، وتعظه بمواعظ الله. ونحو ذلك قوله سبحانه في سورة القصص: **﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾**[4]، قال قتادة: كان يعبد الله في غار، فلما سمع بخبر الرسل جاء يسعى.

---

1 - [البقرة: 260]

2 - [الصافات: 102]

3 - [عبس: 8]

4 - [القصص: 20]

المعنى الثالث: الكسب: يُطلق السعي على العمل والكسب، من ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء : **﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾**[1]، قال القرطبي: أي: عمل لها عملها من الطاعات. ونحو ذلك قوله تعالى في سورة النازعات: **﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾**[2]، قال الطبري: يعمل في معصية الله، وفيما يُسخطه عليه. وعلى هذا المعنى قوله سبحانه في سورة الجمعة:

﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[3]، قال الطبري: وأصل السعي في هذا الموضع العمل. وعن شُرحبيل بن مسلم الخولاني، قال: فاسعوا في العمل، وليس السعي في المشي. وقال قتادة: يعني: أن تسعى بقلبك وعملك، وهو المشي إليها. وليس المراد بالسعي ها هنا المشي السريع، وإنما هو الاهتمام بها، فإن السعي الحسي إلى الصلاة منهي عنه بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم: **«إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، وأتوها تمشون عليكم السكينة»**[4]، وعلى هذا المعنى أيضاً قوله سبحانه في سورة الليل: **﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾**[5]، قال الطبري: إن عملكم لمختلف أيها الناس؛ لأن منكم الكافر بربه،

---

1 - [الإسراء: 19]

2 - [النازعات: 22]

3 - [الجمعة: 9]

4 - (متفق عليه).

5 - [الليل: 4]

والعاصي له في أمره ونهيه، والمؤمن به، والمطيع له في أمره ونهيه.

تلكم الدلالات الثلاث التي جاء عليها لفظ (السعي) في القرآن، فإذا تبين هذا، فلا تستغرب بعدُ أن تجد بعض المفسرين قد فسر لفظ (السعي) في آية بدلالة ما، وفسره آخر بدلالة أخرى، ومرد ذلك ما يظهر للمفسر من ترجيح معنى على غيره، كما فسر بعضهم كالقرطبي (السعي) في قوله تعالى من سورة الجمعة: **(فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ)** بمعنى: العمل، وفسره آخرون كابن كثير بمعنى: النية والقصد، وفسره فريق ثالث بمعنى: المشي، واللفظ يحتمل كلاً من هذه المعاني الثلاثة. وكما فسر بعض المفسرين لفظ (السعي) في قوله تعالى من سورة البقرة : **(وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا)**[1]، بمعنى القصد، أي: سعى بحيلته وإرادته الدوائر على الإسلام وأهله، وفسره آخرون بمعنى العمل، والمعنى: سعى بقدميه، فقطع الطريق وأفسدها، واللفظ محتمل لهذا وذاك؛ لأن كلا السعيين فساد، بيد أن أحدهما معنوي والآخر مادي.

ولفظ السعي ومشتقاته في القرآن الكريم يأتي للدلالة على القصد والدأب في العمل، لما فيه من معنى الشد والإسراع، فهو يرد مجازا في السعي للآخرة وطلبها، إذ العمل الصالح يحتاج إلى جدّ وقصد، قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ، ثُمَّ**

1 - [البقرة: 205]

جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾[1] .

ويأتي للتعبير عن العمل الذي يجتهد فيه صاحبه ويهتم به، قال تعالى في سورة الليل: **(إن سعيكم لشتى)**، حتى عمل الكافر، فهو سعي باهتمام وجدّ، ومن ذلك سعي فرعون، قال تعالى: **(ثم أدبر يسعى فحشر فنادى).**

وقوله تعالى: **(وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها)**، فهو أيضا عمل بهمة واجتهاد.

وليس كلّ عمل يسمى سعيا، فالسعي هو العمل الجادّ. عندما نمشي في المسعى من الصفا إلى المروة، أو العكس، فنحن دائما متوجّهين إلى هدف، وما لم نصل إلى المقصود، فلا يسمى ما نقوم به سعيا. وفي مقارنة بين عمل أصحاب الوجوه الناعمة، وأصحاب الوجوه الخاشعة، العاملة الناصبة . لم يعبّر القرآن فيها بـ "سعيها"، بينما قال عن أولئك **(عاملة ناصبة)**، ثم هو لم يأت بعنوان عمل المؤمنين، وإنما أتى بنوعه والهدف منه، فالسعي مأخوذ في لفظه نوع العمل. فأصحاب الوجوه الناعمة، يسعون، أي أنهم جادّون في حياتهم . وهنا يجدر الإشارة إلى مشكلة نواجهها في هذا الزمن، خصوصا في فئة الشباب، وهي عدم أخذ الحياة ووظائفها على نحو الجديّة

---

[1] - [الإسراء: 18، 19].

والمسؤولية.

السعي نظام وجدية

مشكلة هذا الزمن، وهذه الثقافة، أن الحياة تدور فيها على المتعة والراحة واللذّة، والناس تجد ألف مبرّر للذائذها، بينما السعي الذي يجعل الإنسان من فريق أصحاب الوجوه الناعمة يوم القيامة هو ليس طلب اللذّة، أو المنفعة، أو الراحة، وإنما طلب الأمور الجادّة والحقيقيّة والواقعيّة.

عندما يقوم الإنسان بأعماله على نحو الجدّيّة، فيصلّي جادّا مريداً مقبلا على الله سبحانه وتعالى، ويبني عقائده على نحو الجدّيّة، وهو في بحثه عن الحقيقة جادّ، وصداقاته وعلاقاته ينتقيها وفق قوانين..هذا الجدّ والهدفيّة سبب في الوصول للنعيم. بينما الإنسان اللامبالي، فهو حتى لو وُضع في بيئة جادّة، فإنه لا يتذوّق ولا يستشعر النعيم، لأن قلبه ليس مهيّأ لاستقبال النعيم. وذلك وفق معنى كلاميّ دقيق، مفاده أن كلّ سعادة تعطى للإنسان من الخارج، وكلّ جمال يضفى عليه من الخارج ، فهو لا يفيد تكامل إنسانيته.

إذن هذه الوجوه الناعمة، لم تتّخذ الدنيا لعبا ولهوا، ولا استهترت بدينها،

هناك من الناس من هو متديّن ، لكن يتّخذ دينه لعبا ولهوا، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا ﴾[1]، فتراه يذهب إلى المسجد ولكن ليس تعلقا ببيوت الله، وإنما لتمضية الوقت لا أكثر، ويصلّي، لكن بلا اهتمام، هذا لا يسمى سعيا، السعي فيه نظام وجدّيّة.

الكمال الواقعيّ هو الذي يختاره الإنسان بسعيه

﴿ لِسَعْيِهَا راضِيةٌ ﴾ أي أن هذا الهناء والنعيم، وصلت إليه الوجوه الناعمة، الراضية بسعيها، من باطنها، وناتج من سعيها، وهذه هي السعادة. لو أعطي الإنسان الجنان والحور مجّانا فلن يكون سعيدا، الإنسان إنما يصبح سعيدا حين يحصل على جزاء إنجازه وسعيه، حين يكون هو السبب في تحقيق ذلك النجاح، والسرّ في ذلك يعتمد على أصل أساسيّ في الإنسان، وهو أنه موجود مختار.

الاختيار ليس وصفا عارضا على الإنسان، بل هو حقيقته، هو وصف ذاتيّ له، فإذا أردنا أن نصف الإنسان بما يميّزه عن غيره من الموجودات

---

1 - [الأعراف51]

نقول: إنه حرّ مختار، فلو وصلت إليه سعادة لم يخترها، ولم يسع لها، ولم يخطّط ويبذل وسعه من أجلها، فإن هذه السعادة، تبقى سعادة عرضية، وأيّ كمال يصل إليه بغير اختيار منه، فهو عارض، كالقشر أو الطلاء. يقول المثل: " اللحاف الذي تستعيره لا يدفّئك "، وفي المثل الدارجي المغربي: (لمَكْسي بديال الناس عريان)، فأيّ عمل أنت تستعيره من الخارج، ولا يحكي باطنك، فهذا عمل لا يجلب لك السعادة، لأنك أنت في ذاتك وفي حقيقتك مختار، وما لم تصل إلى هنائك ونعيمك باختيارك، فذاتك ناقصة. والكمال الواقعيّ هو الذي يختاره الإنسان بسعيه.

السعادة قانون إلهي لتصحيح الذاتية وعدم إلغائها

معادلة قانون السعادة، هو الإيمان والعمل، وما دون ذلك وهْم وليس حقيقة للسعادة، قال تعالى في سورة النحل: **(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)**[1].

هناك مشكلة كلامية كبيرة في تفسير معنى السعادة في علم فلسفة الأخلاق.

---

[1] - [النحل: 97]

- **الاشتراكية**: جاءت بقاعدة لحلّ المشكلة الاقتصادية ، ومشكلة العدالة الاجتماعية، قالوا: يجب أن نخلّص الإنسان حسّ الذاتية والمتعة الشخصية، ويجب أن نعمّم الإمكانات الاقتصادية، ويعيش الناس حالة من الشيوعية، ويتحوّل الإنسان من التفكير في سعادته الفرديّة إلى التفكير في الهمّ الاجتماعيّ، لأن سبب كلّ الأزمات والحروب، تفكير الإنسان في الأخذ والاقتناء والاستحواذ على الإمكانيات، وإن الحلّ هو إلغاء طريقة التفكير الفرديّ هذه، وتحويله إلى تفكير شيوعيّ. لكنهم اكتشفوا، أن حلم الشيوعية صعب التحقّق، فلم يستطيعوا جعل كلّ فرد في المجتمع يخرج لعمله لا يقصد إلا العمل من أجل المجتمع، لا يقصد بيته ولا أسرته ولا راحته.. وحين فشلوا قالوا: إن الإنسانية ما زالت لم تتهيّأ بعد لهذا المستوى الفكريّ، فنزلوا من الشيوعية إلى الاشتراكية، وركّزوا على جعل الإنسان يفكر بطريقة حزبية، ويريد مصلحة الحزب، ثمّ يتوسّع من مصلحة الحزب، إلى مصلحة شعبه وأمّته، ثم بعد ذلك يصل إلى حلّ مشكلة الإنسانية. أوهام في أوهام، لم يستطيعوا بها حلّ المشكلة، فوجوه هؤلاء عاملة ناصبة، هم وأتباعهم، وليست لسعيها راضية، لأن الإنسان مفطور على طلب سعادته الفردية.

- **الإسلام**: أما الإسلام، فهو يصحّح الذاتيّة ولا يلغيها. الإسلام دين الفطرة، لا يأتي ليلغي طريقة التفكير الفرديّة لدى الإنسان، بل ليقول له: كمالك هو

في ذاتك، وحقيقتك لا في شيء عارض عليك، لا يأتيك عن طريق المجتمع. يقول له: سعادتك الواقعية تتوقّف على إسعاد الآخرين، أن تضحّي.. أن تفدي.. أن تبذل.. لكن هذه كلّها تصبّ في سعادتك، وفي النهاية الثواب والأجر يرجع لك، ولذا تقول الآية من سورة الغاشية : ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾، فالسعي لها لا لغيرها، وحتّى إذا سعت من أجل غيرها فهي تريد في النهاية سعادتها وفكاك رقبتها من النار. قال تعالى في سورة البلد: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ *عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾[1].

هذه الآية ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾، تناقش كلّ المدارس الفلسفية التي تناولت معنى وصول الإنسان للسعادة، وتعالج أصلا أساسيّا في الفلسفة الأخلاقية لعمل الإنسان، مفاده: هل يمكن إلغاء حسّ الذاتية وحبّ الأنا من الإنسان؟ – أعني حبّ الأنا وحبّ الذات الصحيح –، والجواب أن هذا غير ممكن، فالإنسان مفطور على طلب السعادة لنفسه. والمهم أن يعرف سعادته الواقعية المتمثلة في السعادة الأخروية والعتق من النار.

---

[1] – [البلد: 11 – 20]

ما يطرح الآن من مناهج ودورات فيه خلط خطير، سببه أننا لم نبنَ البناء القرآنيّ الصحيح. نحن نقول: إن الإنسان نعيمه وسعادته في راحته الشخصيّة، ولكن الراحة الشخصية لا تعني المتعة واللذّة على حساب الآخرين، الأصل أن الإنسان ذاتيّ في تفكيره، خلقه الله تعالى بهذا الشكل حتّى يسعى ويطلب الجنّة والنعيم ورضا الله سبحانه وتعالى، ومحاولة إلغاء هذا الحسّ الذاتيّ في الإنسان، معناها أننا نسلب منه العصاميّة في التفكير. تلك الوجوه الناعمة، لماذا هي ناعمة؟ هل لأنها سعت لصالح الحزب؟ هل لأنها أهملت نفسها ونسيتها؟ أو بالعكس، ناعمة لأنها ذكرت نفسها، قال تعالى في سورة الحشر: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾[1]، نسوا الله فأنساهم أنفسهم الطيّبة.

إنكار الإنسان لاحتياجاته نقص في شخصيّته

الإنسان الذي يصل إلى النعيم، هو الذي يتذكّر دائما الفطرة الصحيحة السليمة التي خلقها الله سبحانه عليها، هو الذي يسعى لإحياء الفضائل. نعم، إحياء الفضيلة يعني أن تضحّي وتبذل،. ورد عن المفسرين في شأن قوله تعالى في سورة الإنسان : ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا

[1] - [الحشر 19].

﴿وَأَسِيرًا﴾[1]، معنى دقيقا مفاده؛ أن الضمير في كلمة (حبّه) يعود لله سبحانه، لكن المعنى الأساسي هو أن الضمير يعود على الطعام، فالمؤمنون حقا يكونون فعلا بحاجة إلى الطعام، فهم بشر كغيرهم، والإنسان بما أنه يريد أن يعبد ربه ويطيعه، وعنده مشروع أخرويّ، فهو محتاج إلى بدن صحيح وسليم، هذا البدن آلة الروحِ، والروح بلا آلة لا يمكن أن تتحرّك أو تؤدّي وظيفة. فالمؤمنون حقا يطعمون الطعام رغم أنهم بحاجة إلى الطعام، لكنهم لا ينسون أنفسهم وحاجتهم وأبدانهم، لأن الإنسان إذا نسي نفسه لا يكون إنسانا.

الذي ينسى نفخة الله فيه، و يريد أن يعيش في الناس وإلى الناس ومن الناس. فهذا الإنسان مراءٍ وغير صادق. لابد أن ينظر الإنسان إلى نفخة الله فيه، ويسعى لكماله، والإنسان بطبعه لا يرضى لنفسه النقص، والنفس لا ترضى عن ذاتها بالرذائل. و كما أنك لا ترضى عن الصورة التي تُلتقط لك إذا كانت غير جميلة، فلا يمكن أن ترضى أن تتصف بما يشينك. الإنسان لا يرضى بتشويه قالبه، فكيف يرضى بتشويه قلبه؟ الإنسان الذي لا يرضى بتشويه قلبه، هذا إنسان عاقل حكيم ساع، ولا نقول عنه: أنانيّا ويحبّ نفسه بشكل سلبيّ. لا نتكلّم عن الرضا السلبيّ عن النفس، رضا الله هو المقصد،

[1] - [الإنسان8]

قال تعالى في سورة التوبة: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[1]، لا يمكن إلغاء المنفعة الشخصيّة على نحو الإطلاق، لكن ينبغي أن يريد بها الإنسان وجه الله، هذا هو كماله، الكمال هو حفظ هذا الرابط، هذه الحلقة، هذا الاتصال.

يقول أحد الفضلاء عن كلام أغلب الناس مع بعضهم: " والله لو نطقت البهائم ما قالت غير ذلك! كيف الجو عندك؟ ما أكلك؟ كيف نومك؟ "، يجب أن يخرج الإنسان من هذه الدائرة، دائرة الكلأ والهواء والماء والجو.. هذه دائرة البهائم، يجب أن يخرج من هذا الظاهر إلى الباطن، وكلّما كان جادّا أكثر، كان أكثر رضا عن نفسه، وعن أعماله، وليس عيبا أن يرضى الإنسان عن نفسه، لكن ليس مطلقا، لا يمكن أن نلغي في الإنسان مسألة الذاتيّة، والمقصود الذاتيّة الصحيحة ، ليست ذاتيّة الرغبات والأهواء والشهوات، بل ذاتيّة الإحساس بحقوقه، والذي لا يطالب بحقوقه، إنسان ناقص.

دور الصحبة الصالحة في الرضى عن السعي

كيف يمكن أن يرضى الإنسان عن سعيه؟ نحن ماهرون في تقييم الناس، والحق أن على المرء أن يقيّم نفسه أولا . ما ترضاه من الآخرين

[1] - التوبة 100

فارضَه لنفسك، الشخص الذي ترضاه ضعه أمام ناظريك، وكن مثله. تصوّر شخصيّة نموذجيّة في سلوكها وعلاقاتها واشتغالاتها ومشاريعها، واجعل منها نموذجا لك، وتحوّل تدريجيا لتصبح أنت هذه الشخصيّة. الإنسان الجادّ إنسان انتقائيّ، يختار أحسن أستاذ، وأحسن كتاب، ويختار الصديق الجيّد، والمصحوب النموذج، بالمقابل، هناك من الناس من علاقاته وسلوكه كلّها صدف دون انتقاء واختيار واستخارة واستشارة، يصادق من يجلس بجانبه، ويرافق جاره، هو بنفسه لا يدير نفسه. إذا كان الإنسان لا يختار شكله الظاهريّ، ولا جيناته الوراثية، فهو يختار شخصيته، ويعتبر هذا من عناصر الكمال والفضيلة في الفلسفة الدينية.

مصيرك ليس مجهولا

نحن نتصوّر أن الإنسان إنّما يعرف مصيره في الآخرة، والحق أن مصير الإنسان يوم القيامة ليس شيئا لا يمكن له أن يدركه. يمكنك أن تعرف مصيرك من خلال سير حياتك. فإن كنت راضيا عن فعلك في الدنيا فسترضى عن فعلك يوم القيامة ، مثلا: إنسان عاش لمدة 30 سنة متديّنا ولم يفتضح بذنب، فإن الله الذي ستره في الدنيا أكرم من أن يفضحه في الآخرة. ليقرأ الإنسان حياته من الآن، وسيعرف إن كان من أهل الجنّة وأهل

النعيم. المعيار بيدك الآن، والآخرة لا تحمل المفاجآت.

الآية من سورة الغاشية تقول: ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾، لتقرّر أن سبب النعيم والجنّة ليس شخصا آخر غيرك، الميزان هو أنت، ولن تتفاجأ في الآخرة بشيء جديد. الآية تعطينا المعيار من الآن، وتقول: إن كنت في هذه الدنيا راضيا عن معرفتك ومعتقدك وعلمك وإيمانك وولائك وجدّيتك في الحياة فستنال النعيم. ولن يأتيك النعيم من باب مجهول ، فالنسخة الأصليّة لعملك عندك، يقول تعالى في سورة الجاثية: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]، النسخة هي الكتابة الثانية عن الكتابة الأصليّة، هناك كتاب أساسيّ يسمّى أصل، وما ننقله منه يسمّى نسخة، يقول الله تعالى: إن ما عند الملائكة ليس الأصل، الأصل عندنا نحن، والملائكة يأخذون صورة عن أفعالنا. وكل ما نعمله سنراه، قال تعالى في سورة النجم: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾[2]، كل ما هنالك أن هذا السعي سوف يظهر ويرى. وكما أن جهنّم (طلبيّة) يقدم عليها الإنسان في الدنيا، وتصله في الآخرة، كذلك الحال مع النعيم، هو أيضا (طلبيّة)، قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[3]. وإذا صدقت مع نفسك

---

1 - [الجاثية29]

2 - [النجم 39- 40]

3 - [الإسراء14]

وضميرك، فإن حساب الله سوف لا يخرج عن صدقك، لأنه ميزانك وملاكك.

﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾[1].

العلو هنا حسي، ومعنوي، فالجنة من أعلى المخلوقات، وفوقها عرش الرحمن، وعرش الرحمن: سقف الجنة، وبحسب حال المؤمن ومرتبته في الإيمان، تكون منزلته في الجنة. فلهذا كان الفردوس أعلى الجنة ووسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، فهي عالية في نعيمها، وفيها من النعيم أعلاه. وقد ثبت في سنن الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: **(أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وتصديق ذلك في كتاب الله عز و جل ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾)** [2]. أي في حدائق وبساتين مرتفعة مكانا وقدرا، وهم في الغرفات آمنون.

﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾[3].

﴿ لَاغِيَةً ﴾: كلمة لاغية، من اللغو والباطل، أي لا تسمع في الجنة شتما، أو سبا، أو فحشا، ولا أذى ولا باطلا. أي لا يسمع في هذه الجنة أي كلمة

---

[1] – سورة الغاشية،الآية 10.

[2] – سورة السجدة، الآية 17، رواه الترمذي 5-346، قال الألباني: صحيح.

[3] – سورة الغاشية،الآية 11.

من لغو، أو باطل. و ياله من جو نقي، لا تسمع فيه كلمة زور، ولا هجر من القول! وهذا لا يحصل في الدنيا بحال، فهي مليئة باللغو، والفحش، والزور، والكذب، والبهتان، أما تلكم الجنة العالية، فبريئة نقية من كل ذلك.

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾[1].

﴿ فِيهَا عَيْنٌ ﴾ العين: نبع الماء. والتنوين في [عينٌ] للتكثير، أي عيون كثيرة تجري مياهها ، أي في هذه الجنة، عيون تجري بالماء السلسبيل، لا تنقطع أبدا، روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىاللهعليه وسلم: **(أنهار الجنة تفجر من تحت تلال . أو من تحت جبال المسك).**

﴿ جَارِيَةٌ ﴾: وجارية: سارحة. وليس المقصود بها عين واحدة، وإنما جنس العيون، فهي عيون سارحة تجري على أرض الجنة. كما أنها ليست كأنهار الدنيا، التي لا تجري إلا بأخاديد انحفرت على مر الزمن.

والنفس من طبيعتها تحب الماء ومنظره، وجريانه، وتستروح له، فإذا سمع الناس بماء سارح، أو مجتمِعٍ، في جهة من الجهات، شدوا إليه الرحال، وذهبوا ينظرون إليه، ويتمتعون به، وإذا كان في بلادهم أنهار قصدوها. ولهذا

[1] – سورة الغاشية،الآية 12.

قال فرعون عن دنياه وهو يفتخر على رعاياه في سورة الزخرف: ﴿..وهذه الأنهار تجري من تحتي ..﴾[1]. فلما علم سبحانه وتعالى أن هذا من ملاذّ عباده، قال في وصف الجنة: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾.

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴾[2].

﴿ فِيهَا سُرُرٌ ﴾: المقصود بها ما يجلس عليه الإنسان، ويتكئ عليه.

﴿ مَرْفُوعَةٌ ﴾: أي ذاتاً، وقدراً، ومحلاً، فهي رفيعة في ذاتها التي خلقها الله تعالى عليها، وفي صفتها، وفي محلها. فهي في الجنة، التي هي (عِلّيُّون)، فهي مُرتفعةُ السَّمكِ، ورفيعةُ القَدْرِ، أسِرَّة مرتفعة، مكللة بالزبرجد والياقوت، عليها الحور العين، فإذا أراد ولي الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له.

والنفس تميل إلى الرفعة، والإطلال على ما دونها، فالأنهار من تحتهم، وهم من فوقها مشرفون عليها، وهذا غاية ما يكون في التنعم، والمنظر الحسن.

﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾[3].

---

1 - (الزخرف-51)

2 - سورة الغاشية، الآية 13.

3 - سورة الغاشية،الآية 14.

﴿ وَأَكْوَابٌ ﴾: الأقداح التي لا عُرَى لها، هذه هي الأكواب في لغة العرب، وتكون للشرب.

﴿ مَوْضُوعَةٌ ﴾: أي مقربة، مهيأة، معدة لهم، موضوعة على حافات العيون، مُعَدة لشرابهم، لا تحتاج إلى من يملأها. فكلما أرادوا الشراب، كانت في متناولهم .

وما أحسن التقابل، السرر مرفوعة، والأكواب موضوعة!

﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾[1].

﴿ وَنَمَارِقُ ﴾: وسائد ومرافق يتكأ عليها، جمع نمرقة.

﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾: أي مرصوص بعضها إلى جنب بعض.

أي و وسائد . مخدات . قد صُف بعضها إلى جانب بعض ليستندوا عليها. وهذا ما يطلبه أهل الترف، والثراء، فترى أحدهم في مجلسه وقد جلس بين كمية من الوسائد، يرتفق بها يميناً، وشمالاً، ويتكئ عليها، ويستند، فكذلك أهل الجنة، عندهم وسائد متراصة، يستندون عليها، ويتكئون، ويرتفقون، أي يضعون عليها مرافقهم. فهذه الوسائد تحفهم من كل جانب. ومهما بلغ بنا

[1] – سورة الغاشية،الآية 15.

الخيال، لا يمكن أن نتصور هذا النعيم الحسي، وهذه اللذة، والسرور، والحبور الذي يعيشون فيه، لكنه اللفظ يقرب المعنى للذهن.

﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾[1].

﴿ وَزَرَابِيُّ ﴾: بُسطٌ فاخِرةٌ. وما تسميه العرب بالطنافس، التي يكون لها خمائل خاصة.

﴿ مَبْثُوثَةٌ ﴾: أي أنها كثيرة، منتشرة. مُفرّقة في المجالس. فحيثما توجهوا، تستقبلهم هذه الزرابي مفروشة، معدة لهم.

العلاقة بين مقدمة السورة والفقرة الأولى

نحن نعرف أن القيامة سمّاها الله في أماكن أخرى من القرآن بالواقعة، والحاقّة،... وأسماء أخرى كثيرة، والسر في تسميتها هنا بالغاشية والارتباط بين الغاشية وبين قوله جلّ وعلا: **(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ. عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ)**، وبين الغاشية وقوله: **(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ. لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ. فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)**

نحن الآن في الدنيا، محاطون بالزمن الذي نعيش فيه. وخارجون عما سبقنا

[1] – سورة الغاشية،الآية 16.

من الأزمنة، وعما سوف يأتي بعدنا. هذه الأزمنة ليست محيطة بنا ولسنا محيطين بها. ولكن يوم القيامة كما قال تعالى في سورة هود: ﴿يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾[1]، في ذلك اليوم كلّ الناس يعيشون زمانا واحدا، وظرفا واحدا، وحالا وأحداثا واحدة. كلّ الناس يغشاهم ذلك اليوم، إمّا بعذاب أليم، أو بنعمة ورحمة. فالغاشية غاشية بالنسبة للناس – كلّ الناس– بمعنى أنها تغطي وتشمل وتحيط كلّ الموجودات بلا تصرّم وتقطّع في الزمن.

والغاشية غاشية بالنسبة للإنسان نفسه، فهي اليوم الذي يرى فيه أعماله مجموعة في وقت واحد. فأعمالنا حسنة أو غير حسنة ، قد وقعت إما في زمان ماض، أو سوف نقوم بها في المستقبل، لكنها الآن غير محيطة بنا، بل هي متفرقة في قطعات الزمان، ويوم القيامة يختلف الأمر، بحيث ستكون كل الأعمال مجموعة في حال ووقت وزمان واحد. يقول تعالى في سور البقرة : ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾[2]، أحاطت بهم سيّئاتهم ، أي هذه السيّئات التي كانت متفرّقة في الزمان، ستحيط بالإنسان كلها في زمن واحد يوم القيامة .

هذه الإحاطة تخلق بين الإنسان وبين الحقّ جلّ وعلا حاجزا وحجابا،

1 - [هود103]

2 - [البقرة: 81]

وحين تجتمع تلك الأعمال التي صدرت من الإنسان على امتداد عمره، تحيط به لتشكّل حوله جدارا سميكا فيصبح في (سجّين) وليس سجنا. والفرق بين السجن والسجين، هو أن السجن يحيط الإنسان بأربعة جدران مغلقة المنافذ، فيصبح فاقدا للقدرة على الحركة والمشي والاختيار، لكن السجّين هو سجن وسجن وسجن حتى ييأس الإنسان من الخلاص.

الغاشية فيها هذا النحو من جمع الأعمال المتفرّقة في الزمن، مع الإلفات أنها لا تخص الأعمال السيئة، فالأعمال الحسنة تجتمع أيضا وتتراكم وتصبح غاشية تحيط بالإنسان، لكن الأثر مختلف، فالعمل الصالح نور على نور، ويجعل الإنسان في حال من الترقّي. تلك الأعمال الصالحة التي صدرت من الإنسان في زمن ما ونسيها، ولا يشعر في نفسه بقيمتها، هذه الأعمال لها قيمة تاريخية، في الغاشية يحصل ارتباط وجوديّ بين أعمالك الصالحة الماضي منها والحاضر وما هو آت في المستقبل. تصوّر أن يذكّر الله الإنسان بالأعمال الصالحة التي قام بها وهو طفل بنية حسنة وصفاء وطيب سريرة، ويوضع الإنسان في مناخها وأجوائها ، وتجمع كلّها مع بقيّة أعماله الصالحة، وتعطى له دفعة واحدة، فماذا سيحدث لهذا الإنسان؟ سينعم بذلك، ويكون حاله ما تحكيه الآية ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾.

ميزة العمل الصالح أنه يخلّص الإنسان من القيود ويفتح له الأبواب

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾[1]، بينما حال المسيئين في سجّين ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ. فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾[2]، الملفت في الآية أن إقفال جهنم ليس بشكل عرضي كما في الأبواب عندنا، والسبب لأنها سجن فوق سجن فوق سجن، سجن مطبق. لأن أهل الباطل كلّ واحد منهم سجن للآخر، فهناك ترابط بينهم وبين أعمالهم، فمن يقوم بفعل سيّء ثم يأتي بعده من يقتنع بفعله ويرضى به ويسير عليه، فهو محسوب عليه، وشريك معه، وبالتالي سوف يغشاه فعله وفعل غيره. في المقابل، الإنسان المعتقد بالحقّ والحقيقة، يفتح لنفسه بابا، وللجيل الذي بعده، والجيل الذي قبله يفتحون له الباب أيضا، فهؤلاء في حالة غاشية، وهؤلاء أيضا عليهم غاشية، لكن أولئك الذين عليهم غاشية العذاب، وجوههم يوم القيامة خاشعة.

ضرب المثل ودوره في تقريب نعيم الآخرة وعذابها للأفهام

القرآن يتكلم عن عالم مختلف، ويريد أن يساعدنا على تصوّره، ونحن لم يسبق لنا دخول ذلك العالم، فكيف يقرّب لنا صورته؟ لا يوجد طريق إلا المثال. فالتعريف بالمثال أسهل طرق التعريف وأسرعها، وقد استخدمه القرآن

1 - [سورة ص، الآية 50]
2 - [الهمزة 8-9]

كثيرا، قال تعالى في سورة الروم : ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾[1]، ما يأتي به القرآن هو أمثلة فقط، لأنّ آلات التعريف وأساليبه تختلف في العالمين، الشمس في ذلك العالم مختلفة، القمر مختلف، الماء مختلف، الأكل والشرب مختلف، فليس هناك طريقة لتقريب ذلك العالم إلا أن يلبّس بلباس عالمنا الدنيوي، مثلما تلبس شخصا ملابس ليست له ، ولا تظهر شخصيته ولا باطنه، لكنك تتخيّله بهذا اللباس. القرآن يستفيد من موجودات وآلات وإمكانيات هذه الدار ، ليلبسها للدار الآخرة، وبهذا يجسّم لنا تلك الدار التي لم نَرِدْها، فلا طريقة لمعرفتها والوصول إليها إلا بطريق المثال.

فالقرآن عندما يقول – مثلا – إن أعداء الله يشربون كذا أو يأكلون كذا، وأن المنعّمين من أولياء الله وأحبائه يأكلون ويشربون كذا، فإن هذا صرف تمثيل، وأما الواقع فهو مختلف تماما. عندما يتكلّم القرآن عن الجنّة يقول في سورة الرعد: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾[2]، فهو (مثَل)، أما الواقع فهو شيء آخر. وعندما يقول في سورة الغاشية: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ فهو لا يريد القول بأن أهل النار يأكلون تلك النبتة المعروفة في الدنيا باسم الضريع، وهي نبتة شوكية مُرّة المذاق التي لا تأكلها حتّى الدواب، بل يريد

---

1 - [الروم58]

2 - [الرعد35،]

القول بأن طعام أهل النار يضارع تلك النبتة ويشابهها. وفي الآية استثناء بعد نفي، والاستثناء بعد النفي يفيد الحصر. فكأنه يقول : هؤلاء ليس لهم إلا طعام واحد هو الضريع.

هذا حال أهل النار، بإزاء أهل الجنة! وشتان ما بين الصورتين. منظران متقابلان، بينهما بُعد المشرقين! وحالان متباينان؛ حال أهل النار، وما يعانونه من أنواع العذاب الحسي، والمعنوي، وحال أهل الجنة، وما يتقلبون فيه من أنواع اللذائذ، والنعيم الحسي، والمعنوي.

ثم ذكر تعالى الدلائل والبراهين التي نشاهدها في حياتنا الدنيا، وننتفع بها، والدالة على قدرته سبحانه وتعالى، ووحدانيته، وأن ما وعد به، وتوعد به حق، وأنه سبحانه قادر على إنفاذه، لذا أراد سبحانه أن يلفت نظرنا إلى مخلوقاته في الدنيا، ومدى عظمتها، لأن عظمة الله، تتجلى في عظمة خلقه، فقال في الفقرة الثانية:

الفقرة الثانية: من الآية 17 إلى الآية 20.

محور الفقرة الثانية: إثبات الألوهية بدلائل الربوبية.

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ

رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20)﴾[1].

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾[2].

الإنسان وحجاب الغفلة

عاد السياق في سورة الغاشية من الجنة إلى الدنيا مرة أخرى، وبدأ بالإبل فقال: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ).

وليس بين الإنسان وبين فهم الحقائق إلا حجاب الغفلة؛ فإذا ما كُشف عنه هذا الحجاب، إذا به يجدها ظاهرة أمامه، والقرآن يساعده على ذلك.

ألا ترى كيف يرغبه في النظر إلى تلك الحقائق المألوفة حوله والتي يغفل – عادة – عن غيبها ودلالاتها البعيدة؛ فيقول: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ).

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ ﴾ : يَتأمَّلُون فيُدْرِكُون. وليس المقصود يبصرون البصر

---

[1] – سورة الغاشية، الآيات 17 – 20.

[2] – سورة الغاشية،الآية 17.

المعتاد، وإنما نظر التفكر والاعتبار، وإلا فهم ينظرون إلى الإبل صباح مساء، لأنها كانت أنفَس أموالهم.

والآية الكريمة "**أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلى الْإِبِلِ**" أفلا صيغة استفهام إنكاري، وهي أفضل صور الحث على النظر، وعلى إعمال البصر والعقل والقلب، للوصول إلى ما عليه الإبل من خلق بديع. وفيها دعوة للنظر إلى الإبل بما هي عليه من الخلق البديع من عظم جثتها ، ومزيد قوتها ، وبديع أوصافها، فقد خلقت جميلة جداً، فهي تبهرك حين تمشي، وحين ترد الماء، وحين تبرك.

كان الإنسان يسافر ويحمل أثقاله على الإبل، ومنها يشرب ويأكل، ومن أوبارها وجلودها يلبس وينزل، ولها خصائص مهمة، فهي على قوتها وضخامتها وضلاعة تكوينها ، ذلول يقوده الصغير، فتقاد وهي على عظم نفعها وخدمتها قليلة التكاليف، مرعاها ميسر، وكلفتها ضئيلة، وهي أصبر الحيوان المستأنس على الجوع والعطش والكدح وسوء الأحوال، فالإبل من إبداع الخلاق العليم، المتفرد بصنعته التي تدل عليه وتقطع بوجوده.

لهذا يخص الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة الإبل من بين مخلوقاته الحية، ويجعل النظر إلى كيفية خلقها أسبق من التأمل في كيفية رفع السموات، ونصب الجبال، وتسطيح الأرض، ويدعو إلى أن يكون النظر والتأمل في هذه المخلوقات مدخلاً إلى الإيمان الخالص بقدرة الخالق وبديع

صنعه.

في هذه الآية الكريمة يحضنا الخالق العليم بأسرار خلقه حضاً جميلاً رفيقاً، على التفكير والتأمل في خلق الإبل (أو الجِمال)، باعتباره خلقاً دالاً على عظمة الخالق . سبحانه وتعالى . وكمال قدرته وحسن تدبيره. وسوف نرى أن ما كشفه العلم حديثاً عن بعض الحقائق المذهلة في خلق الإبل يدل على سبق القرآن الكريم في الإشارة إلى هذا المخلوق المعجز الذي يدل على عظمة خالقه سبحانه وتعالى، كما يدل أن القرآن الكريم هو الكتاب المعجز الذي نزل من عند الله تعالى على قلب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

ومادام للإبل أسرار في خلقها، فسنذكر منها:

بعض الأسرار في خلق الإبل

أولا: الإبل والإعجاز العلمي :

إن أول ما يلفت الأنظار في الإبل الشكل الخارجي الذي لا يخلو تكوينه من الآيات البينات التي تأخذ بالألباب :

1 – أذنا الإبل:

فالأذنان صغيرتان قليلتا البروز، فضلاً عن أن الشعر يغطيها من كل جانب،

ليقيها من الرمال التي تحملها الرياح، وكما أن لها القدرة على الانثناء خلفاً، والالتصاق بالرأس إذا ما هبت العواصف الرملية.

2 - منخرا الإبل:

المنخران يتخذان شكل شقين ضيقين محاطين بالشعر، وحافتهما لحمية، مما يسمح للجمل أن يغلقهما أمام ما تحمله الرياح إلى رئتيه من دقائق الرمال.

إن الإبل لا تتنفس من فمها، ولا تلهث أبداً مهما اشتد الحر أو استبد بها العطش، وهي بذلك تتجنب تبخر الماء من هذا السبيل.

3 - عينا الإبل:

إن لعيني الجمل رموش ذات طبقتين، مثل الفخ، بحيث تدخل الواحدة بالأخرى، وبهذا فإنها تستطيع أن تحمي عينها وتمنع دخول الرمال إليه.

4 - ذيل الإبل:

وذيل الجمل يحمل كذلك على جانبيه شعراً يحمي الأجزاء الخلفية من حبات الرمل التي تثيرها الرياح، والتي كأنها وابل من طلقات الرصاص.

5 - قوائم الإبل:

أما قوائم الجمل، فهي طويلة لترفع جسمه عن كثير مما يثور تحته من غبار،

كما أنها تساعده على اتساع الخطو، وخفة الحركة، وتتحصن أقدام الجمل بخف يغلفه جلد قوي غليظ يضم وسادة عريضة لينة تتسع عندما يدوس الجمل بها فوق الأرض، ومن ثم يستطيع السير فوق أكثر الرمل نعومة وحرارة ، وهو ما يصعب على أية دابة سواه ، ويجعله جديراً بلقب "سفينة الصحراء".

وما زالت الإبل في كثير من المناطق القاحلة، الوسيلة المثلى لارتياد الصحارى، وقد تقطع قافلة الإبل بما عليها من زاد ومتاع نحواً من خمسين أو ستين كيلومتراً في اليوم الواحد، ولم تستطع السيارات بعدُ من منافسة الجمل في ارتياد المناطق الصحراوية الوعرة غير المعبدة .

6 – عنق الإبل:

خلق الله سبحانه وتعالى الإبل ذوات أعناق مرتفعة، حتى تتمكن من تناول طعامها من نبات الأرض، كما أنها تستطيع قضم أوراق الأشجار المرتفعة حين مصادفتها، هذا فضلاً عن أن هذا العنق الطويل يزيد الرأس ارتفاعاً عن الأقذاء ويساعد الجمل على النهوض بالأثقال.

وحين يبرك الجمل للراحة أو يناخ ليعد للرحيل يعتمد جسمه الثقيل على وسائد من جلد قوي سميك على مفاصل أرجله، ويرتكز بمعظم ثقله على كلكله،

حتى إنه لو جثم به فوق حيوان أو إنسان طحنه طحناً .

وهذه الوسائد إحدى معجزات الخالق التي أنعم بها على هذا الحيوان العجيب، حيث إنها تهيؤه لأن يبرك فوق الرمل الخشنة الشديدة الحرارة التي كثيراً ما لا يجد الجمل سواها، مفترشاً له، فلا يبالي بها، ولا يصيبه منها أذى. والجمل الوليد يخرج من بطن أمه مزودا بهذه الوسائد المتغلظة، فهي شيء ثابت موروث، وليست من قبيل ما يظهر بأقدام الناس من الحفاء، أو لبس الأحذية الضيقة.

7 – معدة الإبل:

وأما معدة الإبل، فهي ذات أربعة أوجه، وجهازه الهضمي قوي، بحيث يستطيع أن يهضم أي شيء، بجانب الغذاء، كالمطاط مثلا في الأماكن الجافة .

8 – اختلاف دم الإبل عن جميع المخلوقات:

إن العلماء في عالمنا المعاصر قد توصلوا إلى بعض الخصائص التي يمتاز بها الإبل عن بقية المخلوقات، من ذلك: اختلاف "كريات" الدم الحمراء في الإبل عن بقية كريات الدم الحمراء في جميع المخلوقات، إذ أن جميع الحيوانات لها "كريات" دم حمراء مستديرة الشكل، أما الإبل فإن كريات الدم

عنده "أهليجية" الشكل، وليست لها نواة . وذلك لحكمة أرادها الخالق جل وعلا، ومن أجل هذه الخاصية، يمكن أن يشرب الإبل مائة لتر من الماء مرة واحدة، عندها تتفتح كريات الدم بقدر حجمها مرتين دون أن تتفجر، يقول أحد العلماء: إن جميع خلق الله سبحانه وتعالى من إنسان وحيوان ونبات له قدرة محدودة على شرب الماء، فإذا زادت الكمية عن القدر المحدد، انفجرت كريات الدم الحمراء، وعرضت حياة صاحبها للخطر، ويقول: إن بعض الإبل تستطيع أن تستغني عن الماء لمدة تزيد على ستة أشهر في فصل الشتاء، ويدلل هذا العالم بذلك على التجارب التي قام بها في معمله على الإبل وبقية الحيوانات الأخرى، والتي نفقت بمجرد أن أفرغ في جوفها كمية من الماء تزيد عما تتحمله كريات الدم الحمراء داخل جسمها.

9 – لعاب الإبل من أقوى المضادات الحيوية:

يدلل بعض العلماء نتيجة للأبحاث التي أجريت على هذا الحيوان العجيب، أن لعابه يعتبر من أقوى المضادات الحيوية التي عرفتها البشرية في قتل المكروبات، ولهذا نجد أن الأمراض التي تصيب الإبل قليلة جداً، وتكاد تكون خارجية مثل "الجرب" و"الشاف".

10 – حليب الإبل :

يعد لبن الإبل، أعجوبة من الأعاجيب التي خصها الله سبحانه للإبل، حيث تحلب الناقة لمدة عام كامل في المتوسط، بمعدل مرتين يومياً، ويبلغ متوسط الإنتاج اليومي لها من 5 . 10 كجم من اللبن، بينما يبلغ متوسط الإنتاج السنوي لها حوالي 230 . 260 كجم .

ويختلف تركيب لبن الناقة بحسب سلالة الإبل التي تنتمي إليها، كما يختلف من ناقة لأخرى، وكذلك تبعاً لنوعية الأعلاف التي تتناولها الناقة، والنباتات الرعوية التي تقتاتها، والمياه التي تشربها، وكمياتها، ووفقا لفصول السنة التي تربى بها، ودرجة حرارة الجو أو البيئة التي تعيش فيها، والعمر الذي وصلت إليه هذه الناقة، وفترة الإدرار، وعدد المواليد، والقدرات الوراثية التي يمتلكها الحيوان ذاته، وطرائق التحليل المستخدمة في ذلك.

وعلى الرغم من أن معرفة العناصر التي يتكون منها لبن الناقة على جانب كبير من الأهمية، سواء لصغر الناقة أو للإنسان الذي يتناول هذا اللبن، فإنها من جانب آخر تشير وتدل دلالة واضحة على أهمية مثل هذا اللبن في تغذية الإنسان، وصغار الإبل، وبشكل عام، يكون لبن الناقة أبيض مائلاً للحمرة، وهو عادة حلو المذاق لاذع، إلا أنه يكون في بعض الأحيان مالحاً،

كما يكون مذاقه في بعض الأوقات مثل مذاق المياه، وترجع التغيرات في مذاق اللبن إلى نوع الأعلاف والنبات التي تأكلها الناقة والمياه التي تشربها. كذلك ترتفع قيمة الأس الهيدروجيني Ph وهو مقياس الحموضة في لبن الناقة الطازج، وعندما يترك لبعض الوقت تزداد درجة الحموضة فيه بسرعة .

ويصل محتوى الماء في لبن الناقة بين 84 % و 90%، ولهذا أهمية كبيرة في الحفاظ على حياة صغرى الإبل، والسكان الذين يقطنون المناطق القاحلة، (مناطق الجفاف) . وقد تبين أن الناقة الحلوب تفقد أثناء فترة الإدرار ماءها في اللبن الذي يحلب في أوقات الجفاف، وهذا الأمر يمكن أن يكون تكيفاً طبيعياً، وذلك لكي توفر هذه النوق وتمد صغارها والناس الذين يشربون من حليبها . في الأوقات التي لا تجد فيها المياه . ليس فقط بالمواد الغذائية، ولكن أيضا بالسوائل الضرورية لمعيشتهم وبقائها على قيد الحياة، وهذا لطف وتدبير من الله سبحانه وتعالى.

وكذلك فإنه مع زيادة محتوى الماء في اللبن الذي تنتجه الناقة العطشى ينخفض محتوى الدهون من 4،3 % إلى 1،1 %، وعموماً يتراوح متوسط النسبة المئوية للدهون في لبن الناقة بين 2،6 إلى 5،5%، ويرتبط دهن اللبن بالبروتين الموجود فيه.

وبمقارنة دهون لبن الناقة مع دهون ألبان الأبقار والجاموس والغنم، لوحظ

أنها تحتوي على حموض دهنية قليلة، كما أنها تحتوي على حموض دهنية قصيرة التسلسل، ويرى الباحثون أن قيمة لبن الناقة تكمن في التراكيز العالية للحموض الطيارة التي تعتبر من أهم العوامل المغذية للإنسان، وخصوصاً الأشخاص المصابين بأمراض القلب.

ومن عجائب لبن الإبل أن محتوى اللاكتوز في لبن الناقة يظل دون تغيير منذ الشهر الأول لفترة الإدرار، وحتى في كل من الناقة العطشى والنوق المرتوية من الماء. وهذا لطف من العلي القدير فيه رحمة وحفظ للإنسان والحيوان، إذ إن اللاكتوز (سكر اللبن) سكر هام يستخدم كمليّن وكمدّر للبول، وهو من السكاكر الضرورية التي تدخل في تركيب أغذية الرضع.

وفضلاً عن القيمة الغذائية العالية لألبان الإبل، فإن لها استخدامات وفوائد طبية عديدة، تجعله جديراً بأن يكون الغذاء الوحيد الذي يعيش عليه الرعاة في بعض المناطق، وهذا من فضل الله العظيم، وفيضه العميم.

11 – قدرة الإبل على شرب الماء شديد الملوحة والمرارة:

تمتاز الإبل عن بقية المخلوقات بقدرتها على إطفاء ظمئها بأي نوع من الماء تجده، فهي تشرب من مياه المستنقعات شديدة الملوحة والمرارة، وتشرب من مياه البحر والمحيطات، وترجع مقدرة الإبل على تجرع محاليل الأملاح

المركزة، إلى استعداد خاص في الكليتين اللتين لهما قدرة عجيبة على إخراج الفائض ضمن الأملاح.

12 – بول الإبل

هنالك أسرار أخرى عديدة لم يتوصل العلم بعد إلى معرفة حكمتها، ولكنها تبين صوراً أخرى للإعجاز في خلق الإبل، كما دل عليه البيان القرآني.

إن أبوال الإبل وردت فيها دراسات حديثة، أولاها خلصت بعد دراسة على النبات المعالج بمواد مسرطنة إلى أن بول الإبل قد أوقف الخلايا السرطانية، ويمكن أن يستفاد منه في علاج سرطان الجهاز الهضمي، وسرطان الدم، موحين بمزيد من التحليلات الكيماوية للمواد الفعالة في بول الإبل، وهذه الدراسة على أيدي كويتيين في جامعة الكويت بكلية الزراعة في الثمانينيات، ثم تلتها دراسة لباحثة سودانية وجدت في دراسة ميدانية في صحراء المغرب لدى القبائل التي لديها الإبل أن نساءهم ذوات شعر جيد، حيث إنهن يغسلن به شعورهن، ولذلك زالت القشرة، وامتنع تساقط الشعر، واستطاعت الباحثة علاج جرب الإبل من الإبل ببول الإبل، وذكرت في خلاصة بحثها أن بول الإبل فيه قدر عال من مركبات الكبريت والثيو سلقيت التي تعد أهم مكونات الشامبو ومنظفات الشعر.

إن الأبحاث العلمية أثبتت فعالية ضد بعض أنواع البكتريا والفيروسات ومعالجة كثير من الأمراض، وأثبتت كذلك أننا نستطيع معالجة الكثير من الأمراض جليلها وقليلها عن طريق ألبان الإبل وأبوالها، ويؤيد ذلك ما رواه الإمامان البخاري ومسلم بسنده ما عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن نفراً من قبيلة عكل قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فبايعوه على الإسلام ثم استوخموا أرض المدينة ـ وسقمت أجسامهم ـ فشكوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال عليه الصلاة والسلام: **(ألا تخرجوا مع راعينا في إبله فتصيبون من أبوالها وألبانها..؟ فقالوا: بلى. فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحوا)** ، ووقع خصوص التداوي بأبوال الإبل حديث أخرجه ابن المنذر عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ **(عليكم بأبوال الإبل فإنها نافعة للذربة بطونهم).**

لقد أثبت كثير من العلماء الباحثين، أن في أبوال الإبل من الخصائص ما يمكن عن طريقها ـ بإذن الله تعالى ـ معالجة الكثير من الأمراض المستعصية، ولقد كانت الأجيال السابقة، قبل ظهور ما يعرف بـ"المضادات الحيوية"، والمطهرات، يغسلون الجروح والقروح بأبوال الإبل، فتندمل وتشفى، وكانوا إذا أحسوا بخمول في الجسم، أو آلام في المعدة، نتيجة لما يسمى بالتلبكات

المعوية، سارعوا إلى شرب أبوال وألبان الإبل، فتعود لهم الصحة، وكانت النساء يغسلن رؤوسهن بأبوال الإبل فينموا الشعر ويتكاثر ويشفى من أمراضه التي تعمل على تقصفه وإزالة ما به من قشور وآفات. وهنالك أسرار أخرى عديدة لم يتوصل العلم بعد إلى معرفة حكمتها، ولكنها تبين صوراً أخرى للإعجاز في خلق الإبل كما دل عليه البيان القرآني.

أ – مكونات بول الإبل وفوائده

تركيبة بول الإبل (تحليل pH) بصورة عمومية، قلوي جداً، عكس البول البشري الذي هو حمضي لاذع، فبول الإبل يحتوي على كمية كبيرة من البوتاسيوم، وكميات قليلة من الصوديوم، وعندما تتم مقارنة بول الإبل مع أبوال الأبقار والماعز والبشر، نجد أن المغنسيوم في بول الإبل أعلى من البول البشري، وأن محتوى البولينا والبروتينات الزلالية عالية جداً إذا ما قورنت بالبشر، وإن محتوى الحامض البولي أقل، وهذا هو الذي يؤدي دوراً أساسياً في تحسين توازن الإلكترولايت لمرضى الاستسقاء، لأن مرض الاستسقاء ينتج عن نقص في الزلال والبوتاسيوم، وبول الإبل غني بالاثنين معاً، ويوضح أيضاً التأثير المدر للبول لمن يشرب بول الإبل، وكذلك الزيادة المتكررة لحركة تفريغ الأمعاء التي تجعلهم أفضل حالاً وأحسن نشاطاً. وبول الإبل يسميه أهل البادية " الوَزَر "، وطريقة استخدامه، هي أن يؤخذ مقدار

فنجان قهوة، أي ما يعادل حوالي ثلاثة ملاعق طعام، من بول الناقة، ويفضل أن تكون بكراً، وترعى في البر (على القسيوم والشيح)، ثم يخلط مع كأس من حليب الناقة ويشرب على الريق.

ب – التركيب الكيميائى لبول الإبل الطازج والمحفوظ

أظهرت نتائج تحليل بول الإبل الطازج الغير معامل، باستخدام جهاز الطيف المرئي، احتواءه على مركبات عضوية هي: يوريا، حمض اليوريك والكرياتنين، أيضاً على بروتينات تتمثل في ميكروالبومين وإنزيم الاميلاز، ومما هو جدير بالذكر أن مستوى الجلوكوز كان منعدما. بالإضافة إلى احتوائه على الفسفور غير العضوي وشق الكلوريد.

وأُتبعت ثلاث طرق مختلفة لتقدير العناصر المعدنية، في كل من بول الإبل الطازج والمخزن باستخدام جهاز

((ICP)Inductively Coupled Plasma Spectrometer

أظهرت الطرق المستخدمة للتقدير إلى احتواء بول الإبل على وجود 17
عنصر فلزي (الليثيوم، الصوديوم، الماغنسيوم، الألومينيوم، البوتاسيوم، الكالسيوم،، الكروم، المنجنيز، الحديد، النيكل، النحاس، الزنك، الموليبدينيوم، الكادميوم، الباريوم، الزئبق،الرصاص)، وعنصر لافلزي

(السيلينيوم)(Selenium)،وعنصران من أشباه الفلزات (البورون، الزرنيخ)(Boron– Arsenic).

وأشارت نتائج التحليل الإحصائي إلى أن التخزين أدى إلى انخفاض في محتوى البول من بعض العناصر الفلزية (الليثيوم – الصوديوم – الماغنسيوم – الالومينيوم – الكالسيوم – الباريوم)، ومن العناصر أشباه الفلزات(البورون). من الناحية الأخرى أدى تخزين بول الإبل إلى اختفاء عدد من العناصر(النيكل – الموليبدينم – الرصاص) مقارنة ببول الإبل الطازج.

* أثر بول الإبل المضاد للبكتريا الممرضة

أظهرت الدراسات أثر بول الإبل (خصوصا بعد تركيزه وتعقيمه) ف ي القضاء على العديد من سلالات البكتريا الخطيرة الممرضة.

* أثر بول الإبل المقوي لمفعول أدوية السرطان

أظهرت الدراسات أثر بول الإبل ف ي تقوية مفعول أدوية السرطان مثل السيكلوفوسفاميد حيث إن بول الإبل ذو أثر مضاد لنمو الخلايا السرطانية بدون أضرار جانبية، لاحتوائه على مضادات للأكسدة، وهذا مما يزيد فاعلية جرعاتها المعتادة بكثير، بدون اللجوء إلى زيادة جرعات مضادات السرطان التي تضاعف آثارها الجانبية المدمرة.

جسيمات النانو المناعية فـي أبوال الإبل قد تساعد ف ي علاج السرطان وأمراض الجلد المستعصية.

الإبل ذات السنام الواحد تتميز عن غيرها من الثدييات في أنها تملك في دمائها وأنسجة الجسم أجسام مضادة تتركب من سلاسل قصيرة من الأحماض الأمينية وسميت بالأجسام المضادة الثانوية Nanobodies وهذه تتميز بأنها أكثر ثباتاً في مقاومة درجة الحرارة وتغير الأس الهيدروجيني وتحتفظ بفاعليتها أثناء مرورها بالمعدة والأمعاء بعكس الأجسام المضادة العادية التي تتلف بالتغيرات الحرارية والأنزيمية للجهاز الهضمي، وهذا أوجد آفاقاً لصناعة أدوية تحتوي أجساماً نانوية لمرضى الأمعاء الالتهابي، وسرطان القولون، ومرض الزهايمر، وغيرها.

وقد أثبتت الأجسام المضادة الثانوية Nanobodies الفاعلية في القضاء على الأورام السرطانية، حيث تلتصق بكفاءة عالية بجدار الخلية السرطانية وتدمرها، ولذلك طورت إحدى شركات الأدوية عقاقير مصدرها حليب الإبل، تستعمل في القضاء على فيروس الإيدز ، وفي بريطانيا وأمريكا توجد نتائج ممتازة في إنتاج عقار لمرضى الإيدز والسرطان والتهاب الكبد الفيروسي من النوع C , B، وأظهرت الدراسات أثر بول الإبل ف ي علاج بعض أنواع

السرطان[1]، مثل سرطان الرئة (حيث انخفض الورم إلى النصف بعد التداو ي ببول الإبل ممزوجا بلبنها) وتم تجربة العلاج على أنواع أخرى من السرطانات (سرطان الدم، والمعدة، والقولون، والثدي، وأورام المخ) وأعطت نتائج إيجابية مشجعة، كذلك تجرى الدراسة للعلاج ببول الإبل وألبانها في بعض الأمراض الجلدية المناعية المستعصية مثل البهاق والإكزيما[2].

[1] – سعت الدكتورة فاتن عبد الرحمن خورشيد للبحث حول فوائد بول الإبل لعلاج مرضى السرطان في جامعة الملك عبد العزيز في عام 2008 حيث تلقت الميدالية الذهبية، واستمرت مدة البحث 7 سنوات، حيث توصلت إلى العديد من الفوائد، وتوصل إلى أن بول الإبل له تأثير المخدرات، وأن له آثار سامة للخلايا، وقابلة للمقارنة لـ يسيكلوفوسفاميد المخدرات. وجد أن بول الإبل له تأثير حاسم في قتل الجراثيم والفيروسات المسببة للأمراض، فقد فقدت بعض الأدوية قيمتها أمام فوائد بول الإبل، وتمكن من تعجيز العديد من الأدوية، فهذا ضابط كان لديه تورم في المخ، وسافر إلى أمريكا من أجل العلاج، ولكن كان حاله ميئوسا منه، بعد قيامه بالعديد من الفحوصات والتحاليل.ولم يتمكن الأطباء من فعل شيء له، لانتشار الورم السرطاني لديه في المخ، إلا أن رجلًا وصف إليه وصفة طبيعية، يخلط معها بول الإبل أو حليب الإبل، وهي عبارة عن حبة المر تخلط مع بول الإبل، أو حليب الإبل، وتكون محلى بالعسل، ويستمر عليها لمدة ثلاث أشهر، وبالفعل تم شفاؤه بأمر الله.وأيضًا يساعد بول الإبل في علاج سرطان الرئة، حيث تم استخدامه على مريض مع تناول الأدوية تم خفض التورم في فترة قصيرة وهي شهر واحد، كما أنه يعالج سرطان الثدي وسرطان الدم وسرطان القولون وسرطان المعدة وسرطان الرئة وأورام الدماغ.

الفوائد العامة لبول الإبل:

1 – يساعد على تقوية عضلة القلب.، **2** – يعمل على التخلص من حب الشباب وعلاج البهاق.، **3** – يساعد على تقوية عظام الأطفال.، **4** – يعمل على علاج وتنظيف وتطهير

13 - تنظيم جسم الإبل للحرارة :

عرق الإبل: يمتاز الجمل بأنه لا يفرز إلا مقداراً ضئيلاً من العرق عند الضرورة القصوى؛ بفضل قدرة جسمه على التكيف مع المعيشة في ظروف الصحراء التي تتغير فيها درجة الحرارة بين الليل والنهار .

شعر الإبل: إن جسم الجمل مغطى بشعر كثيف، وهذا الشعر يقوم بعزل الحرارة ويمنعها من الوصول إلى الجلد تحتها، ويستطيع جهاز ضبط الحرارة في جسم الجمل أن يجعل مدى تفاوت الحرارة نحو سبع درجات كاملة دون

الجروح والتخلص من الدمامل والتهابات الحلق. **5** - يساعد في علاج جلطات الدم،. **6** - يُعالج التهابات العين عن طريق استخدام بول الإبل كغسول للعينين. **7** - يساعد في التخلص من أمراض الأسنان واللثة، حيث إنه يحتوي على فيتامين C.، **8** - يساعد على التخلص من الحمى.، **9** - يستخدم في القضاء على نزلات البرد ، والرشح، وحساسية الصدر ، عن طريق استنشاقه. **10** - يعمل علي تقوية الجسم، وإعادة بنائه، فهو مفيد للصحة العامة للإنسان.

11 - يساعد على التخلص من أمراض الجهاز الهضمي.، **12** - يعمل على تنظيم النفس ، والتخلص من أمراض الجهاز التنفسي.، **13** - يقضي على البواسير.، **14** - يساعد على التخلص من أمراض السُل ،و علاج اليرقان. يجب استخدام بول الإبل مرة واحدة في الشتاء، ولا يتجاوز استخدامه في الصيف أربعة مرات، وذلك لتجنب حدوث أي ضرر للإنسان، حيث يوجد في بول الإبل الكثير من اليوريا التي توجد فيه أكثر من أي كائن حي آخر ويرجع ذلك إلى اختزان الإبل للمياه لأكثر مدة ممكنة.

ضرر، أي بين 34م و 41 م، ولا يضطر الجمل إلى العرق إلا إذا تجاوزت حرارة جسمه 41 م، ويكون هذا في فترة قصيرة من النهار، أما في المساء، فإن الجمل يتخلص من الحرارة التي اختزنها عن طريق الإشعاع إلى هواء الليل البارد، دون أن يفقد قطرة ماء، وهذه الآلية وحدها توفر للجمل

خمسة لترات كاملة من الماء، ولا يفوتنا أن نقارن بين هذه الخاصة التي يمتاز بها الجمل، وبين نظيرتها عند جسم الإنسان الذي ثبتت درجة حرارة جسمه العادية عند حوالي 37 م، وإذا انخفضت أو ارتفعت يكون هذا نذير مرض ينبغي أن يتدارك بالعلاج السريع، وربما توفي الإنسان إذا وصلت حرارة جسمه إلى القيمتين اللتين تتراوح بينهما درجة حرارة جسم الجمل (34م و41 م)

14 – إنتاج الإبل للماء :

يقوم الجمل بإنتاج الماء، والذي يساعده على تحمل الجوع والعطش وذلك من الشحوم الموجودة في سنامه، بطريقة كيماوية يعجز الإنسان عن مضاهاتها.

فمن المعروف أن الشحم والمواد الكربوهيدراتية لا ينتج عن احتراقها في الجسم سوى الماء، وغاز ثاني أ كسيد الكربون، الذي يتخلص منه الجسم في عملية التنفس، بالإضافة إلى تولد كمية كبيرة من الطاقة اللازمة الواصلة

النشاط الحيوي .

والماء الناتج عن عملية احتراق الشحوم، من قبيل الماء الذي يتكون على هيئة بخار حين تحترق شمعة على سبيل المثال، ويستطيع المرء أن يتأكد من وجوده إذا قرب لوحاً زجاجياً بارداً فوق لهب الشمعة، لاحظ أن الماء الناتج من الاحتراق قد تكاثف على اللوح . وهذا مصدره البخار الخارج مع هواء الزفير، ومعظم الدهن الذي يختزنه الجمل في سنامه، يلجأ إليه الجمل حين يشح الغذاء أو ينعدم، فيحرقه شيئاً فشيئاً، ويذوى معه السنام يوماً بعد يوم، حتى يميل على جنبه، ثم يصبح كيساً متهدلاً خاوياً من الجلد إذا طال الجوع والعطش بالجمل المسافر المنهك .

ومن حكمة خلق الله في الإبل، أن جعل احتياطي الدهون في الإبل كبيراً للغاية، يفوق أي حيوان آخر، ويكفي دليل على ذلك، أن نقارن بين الجمل والخروف المشهور بإليته الضخمة المملوءة بالشحم، فعلى حين، نجد الخروف يختزن زهاء 11 كجم من الدهن في إليته، نجد أن الجمل يختزن ما يفوق ذلك المقدار بأكثر من عشرة أضعاف، (أي نحو 120 كجم)، وهي كمية كبيرة بلا شك، يستفيد منها الجمل بتمثيلها وتحويلها إلى ماء وطاقة، وثاني أكسيد الكربون. ولهذا يستطيع الجمل أن يقضي حوالي شهر ونصف، بدون ماء يشربه. ولكن آثار العطش الشديد تصيبه بالهزال، وتفقده الكثير من

وزنه، وبالرغم من هذا، فإنه يمضي في حياته صلدا لا تخور قواه، إلى أن يجد الماء العذب، أو المالح، فيعب منه عباً، حتى يطفئ ظمأه، كما أن الدم يحتوي على أنزيم البومين، بنسبة أكبر، مما توجد عند بقية الكائنات، وهذا الإنزيم، يزيد في مقاومة الجمل للعطش، وتعزى قدرة الجمل الخارقة على تجرع محاليل الأملاح المركزة، إلى استعداد خاص في كليته، لإخراج تلك الأملاح في بول شديد التركيز، بعد أن تستعيد معظم ما فيه من ماء لترده إلى الدم .

وهنالك أسرار أخرى عديدة لم يتوصل العلم بعد إلى معرفة حكمتها، ولكنها تبين صوراً أخرى للإعجاز في خلق الإبل، كما دل عليه البيان القرآني.

15 – أهمية الإبل في الأمن الغذائي :

في عامي 1984 و1985، حين أصيبت أفريقيا بالجفاف، هلكت . أو كادت تهلك . وفي كينيا، القبائل التي كانت تعيش على الأبقار التي كفّت عن إفراز اللبن، ثم مات معظمها، بينما نجت القبائل التي كانت تعيش على الإبل، لأن النوق استمرت في الجود بألبانها في موسم الجفاف. ومن هنا أصبح للاهتمام بالإبل أيضاً دوافع اقتصادية ومستقبلية مهمة ، ودعا أهل الاختصاص إلى التعمق في دراسة هذا الحيوان في عالم تُستنفد سريعاً موارده من الغذاء والطاقة .

والنظرة المتأملة في الإبل، أقنعت الناس منذ عهد نزول الوحي بصورة ظاهرة فيها من إعجاز الخلق ما يدل على قدرة الخالق، كما أن العلماء والباحثين المتعمقين، لا يزالون حتى اليوم يجدون آيات خفية جديدة في ذلك الحيوان العجيب، تعمق الإيمان بقدرة الخالق، وتحقق التوافق والانسجام بين حقائق العلم الموضوعية التي يكشف عنها العلماء، وبين ما أخبر به الله في قرآنه الكريم .

16 – مقارنة بين قدرات الإبل والإنسان :

لعل في المقارنة بين بعض قدرات الإبل والإنسان ما يزيد الأمر إيضاحاً بالنسبة لنموذج الإبل الفريد في الإعجاز. فقد أكدت تجارب العلماء، أن الإبل التي تتناول غذاءً جافاً يابساً، يمكنها أن تتحمل قسوة الظمأ في هجير الصيف، لمدة أسبوعين أو أكثر، ولكن آثار هذا العطش الشديد، سوف تصيبها بالهزال، لدرجة أنها قد تفقد ربع وزنها تقريباً في خلال هذه الفترة الزمنية. ولكي ندرك مدى هذه المقدرة الخارقة، نقارنها بمقدرة الإنسان الذي لا يمكنه أن يحيا في مثل تلك الظروف أكثر من يوم واحد أو يومين . فالإنسان إذا فقد نحو 5% من وزنه ماء، فقد صواب حكمه على الأمور، وإذا زادت هذه النسبة إلى 10% صُمَّت أذناه، وخلط وهذى، وفقد إحساسه بالألم، (وهذا من رحمة الله به ولطفه في قضائه). أما إذا تجاوز الفقد 12% من وزنه

ماء، فإنه يفقد قدرته على البلع، وتستحيل عليه النجاة، حتى إذا وجد الماء بمساعدة منقذيه. وعند إنقاذ إنسان أشرف على الهلاك من الظمأ، ينبغي على منقذيه أن يسقوه الماء ببطء شديد، تجنباً لآثار التغير المفاجئ في نسبة الماء بالدم. أما الجمل الظمآن، إذا ما وجد الماء، يستطيع أن يعُبّ منه عباً دون مساعدة أحد ليستعيد في دقائق معدودات ما فقد من وزنه في أيام الظمأ.

وثمة ميزة أخرى للإبل على الإنسان، فإن الجمل الظمآن يستطيع أن يطفئ ظمأه من أي نوع وجد من الماء، حتى وإن كان ماء البحر أو ماء في مستنقع شديد الملوحة أو المرارة، وذلك بفضل استعداد خاص في كليتيه لإخراج تلك الأملاح في بول شديد التركيز ، بعد أن تستعيد معظم ما فيه من ماء لترده على الدم . أما الإنسان الظمآن فإنه أية محاولة لإنقاذه بشرب الماء المالح تكون أقرب إلى تعجيل نهايته . وأعجب من هذا كله أن الجمل إذا وضع في ظروف بالغة القسوة من هجير الصحراء اللافح، فإنه سوف يستهلك ماء كثيراً في صورة عرق وبول وبخار ماء، مع هواء الزفير، حتى يفقد نحو ربع وزنه دون ضجر أو شكوى. والعجيب في هذا أن معظم هذا الماء الذي فقده استمده من أنسجة جسمه، ولم يستنفذ من ماء دمه إلا الجزء الأقل، وبذلك يستمر الدم سائلاً جارياً موزعاً للحرارة ومبددا لها من سطح جسمه، ومن ثم ترتفع درجة حرارته ارتفاعاً فجائياً لا تتحملها أجهزته .

وخاصة دماغه . وفي هذا يكون حتفه .

وهكذا نجد أن الآية الكريمة **(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت)** تمثل نموذجاً لما يمكن أن يؤدي إليه العلم بكافة مستوياته الفطرية والعلمية، وليس في نصّها شيء من حقائق العلوم ونظرياتها، وإنما فيها ما هو أعظم من هذا، فيها مفتاح الوصول إلى تلك الحقائق، بذلك التوجيه الجميل من الله العليم الخبير بأسرار خلقه . هذه بعض أوجه الإعجاز في خلق الإبل من ناحية الشكل والبنيان الخارجي، وهي خصائص يمكن إدراكها بفطرة المتأمل الذي يقنع البدوي منذ الوهلة الأولى بإعجاز الخلق الذي يدل على قدرة الخالق[1] .

ثانيا: السماء والإعجاز العلمي:

﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾[2].

أفلا ينظر الكافرون المكذِّبون، والناس أجمعون، نظر تفكر واعتبار، إلى السماء البديعة المحكمة، كيف رفع الله بناءها، وأعلى سمكها بلا عمد ولا

---

1 – كتاب رحيق العلم والإيمان الدكتور أحمد فؤاد باشاد. علي محمَّد محمَّد الصَّلابي، المعجزة الخالدة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، براهين ساطعة وأدلة قاطعة، دار المعرفة، بيروت. لبنان، 2013م، ص: (151 – 157)..

2 – سورة الغاشية،الآية 18.

دعائم؟ وهذه نقلة أخرى، ومشهد جديد، هذه السماء المبنية، خَلق عظيم، سقف مرفوع، لا نرى له عُمُداً، قال تعالى في سورة الرعد : ﴿..بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا..﴾[1]، كما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، فهذا البناء الشاهق، هذه السبع الشداد، لا تقع على الأرض. قال تعالى في سورة الحج:﴿..وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ. .﴾[2]، وقال سبحانه في سورة فاطر : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا..﴾[3]، فالله تعالى هو الممسك لها، فلو شاء الله لوقعت، وسحقت الخلق كلهم أجمعين. الله عز وجل هو الخالق الوحيد، وهو الإله الوحيد، الذي خلق السماوات والأرض، هو المعبود، الذي خلق وصور وأبدع في كل شيء. فها نحن نرى بديع صنعه في كل شيء، ومن إحدى المظاهر التي تتجلى لنا والتي حيرت العالم، هي خلق السموات، وقد رفعها الله بدون عمد، كما ذكر في القرآن الكريم، وأيضا تزيينها بالنجوم والكواكب، وجعل لها ليلا ونهارا، وشمسا وقمرا، وقد اختلف العلماء في رفع السماء، كيف هي ثابتة دون أعمدة ؟ ولماذا لا تسقط، طالما أن ليس لها أعمدة ظاهرة ؟ ففسر بعض العلماء عدم سقوط السماء، أو رفعها، بأن السبب هو قوة جاذبية الشمس، والتي تمنع الكواكب من الانفلات،

---

1 - (الرعد-2)

2 - (الحج-65)

3 - (فاطر-41).

أو السقوط، وقال بعض العلماء: إن للسماء أعمدة، ولكننا لا نراها، وهو قول ضعيف، والراجح أنه ليس للسماء أعمدة تمسكها، ولو كانت لها أعمدة لاحتاجت هذه الأعمدة إلى أعمدة أيضا تستند عليها وهكذا .... ولكن الواضح لنا أنها ممسوكة بفضل القدرة الإلهية التي ما خلى وجودها من شيء خلقه الله، والتي لولا وجودها لهلكت البشرية، فسبحان الله الخالق الأعظم الذي يخلق ويصور، وينشئ من العدم أشياء تعجز الكيفية عن إدراكها، وتعجز العقول عن بلوغها، وهذا الإعجاز مستمر إلى أن تقوم الساعة.. فسبحان الله الذي خلق كل شيء فأحسنه صنعا.

ثالثا: الجبال والإعجاز العلمي:

﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾[1].

﴿ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾: النصب يكون للخيمة، وذلك أن هيئة الجبل، كهيئة الخيمة، مسنم، وله في الأرض جذور راسخة. ولهذا قال تعالى في سورة (عم): ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[2].

أفلا ينظر الكافرون المكذِّبون، والناس أجمعون، نظر تفكر واعتبار، إلى

---

1 - سورة الغاشية،الآية 19.

2 - (النبأ-7).

الجبال الشاهقة، كيف نُصبت على الأرض نصبا ثابتا راسخا لا يتزلزل، فحصل بها الثبات للأرض والاستقرار؟!

حينما يقف المرء أمام الجبل، يشعر بالتصاغر أمام هذا الخلق العظيم, وقد يكون جبلاً من أصغر الجبال، فكيف إذا كان من الجبال الشاهقة، التي يقاس ارتفاعها بالكيلومترات.

أشار القرآن الكريم الذي نزل على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم إلى حقيقة علمية في عدد من آياته، ألا وهى ظاهرة الجبال التي توجد على سطح الأرض، والتي أمرنا الخالق بأن ننظر في آياته الكونية لنزداد هدى وبصيرة، وذكر الله في كتابه الجبال في 49 آية صريحة، شكلا ووظيفة، وهذه الحقيقة العلمية لشكل ووظيفة الجبال لم يستطع الإنسان أن يصل إليها كحقيقة معروفة إلا بعد التقدم والتطور العلمي والتقني الهائل الذي حدث في الفترة الأخيرة من عمر البشرية.

والإنسان منذ القدم، عرف الجبال، وعاش في أكنافها، وتعامل معها، واستفاد منها ومن مكوناتها، والذي جذبه إليها ما تحتويه من منافع، واكتفى بمعرفتها ظاهريا حتى بداية القرن الثامن عشر، فبدأ يبحث في نشأة الجبال وتكوينها في بدايات القرن التاسع عشر، من أعمال مسح جيولوجي، ودراسات جيولوجية، إلى أن وصل إلى أن هناك امتدادات لهذه الجبال الهائلة في

جوف القشرة الأرضية، إلى مسافات عميقة، وأن هذه الامتدادات إما أن تكون من نفس مادة الجبال البارزة، أو أكثر كثافة منها، وهى بعبارة أخرى وجود جذور Roots لهذه الجبال، ممتدة أسفل منها، وكل بروز على سطح الأرض، له امتداد يخترق الغلاف الصخري للأرض بنسبة 01: 15 ضعف ارتفاعه فوق سطح الأرض.

وفى منتصف القرن التاسع عشر، افترض أحد العلماء أن القشرة الأرضية وما عليها من جبال لا تمثل إلا جزرا طافية على بحر من صخور ذات كثافة عالية، وبناءا على ذلك، فلا بد للجبال لضمان ثباتها واستقرارها على هذه المادة الأكثر كثافة أن تكون لها الجذور التي ذكرناها، والقرآن الكريم قد وجه الإنسان إلى تلك الحقيقة من خلال الآية الكريمة من سورة النبأ **(وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا)**[1]، إلا أن معرفة هذه الحقيقة ما كان متيسرا في القرون الماضية التي سبقت الكشوف العلمية الحديثة، فأشارت هذه الآية الكريمة إلى الشكل الحقيقي للجبل وجذره الخفي الممتد أسفل منه، وذلك في هاتين الكلمتين الواضحتين، وهذه الجذور هي التي مكنت الجبال من الانتصاب على القشرة الأرضية، وهو أمر كان موضع عناية القرآن الكريم حين قال الله تعالى في

---

1 - (النبأ: 7)

سورة الغاشية: **(أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)**[1].

ومع تطور العلوم، انتقل موضوع جذور الجبال من المرحلة النظرية إلى واقعٍ ملموسٍ، بفضل من الله، وبمعرفة تركيب الأرض الداخلي، عن طريق القياسات السايزمية التي كشفت أن القشرة الأرضية الصلبة التي نعيش عليها لا تمثل إلا طبقة رقيقة جدا، قياسا بما تحتها من طبقات أخرى أعلى كثافة منها، وهي الوشاح Mantle (كثافته 3.3)، ثم عرف الدارسون لعلم الأرض والجبال حقيقة اتزان القشرة الأرضية Isostasy رغم ما تحمله من جبال وتلال ووديان، وأن هذا الاتزان لا يتم إلا من خلال امتدادات من مادة القشرة داخل نطاق الوشاح، والتي لا يمكن أن تمثل عمليا إلا بدور الأوتاد في تثبيت الخيمة على سطح الأرض لضمان ثباتها وعدم اضطرابها، وهذه الامتدادت (الجذور) تحت السطحية تتناسب طرديا مع ما يعلو الأرض من تراكيب، فهي جذور ضحلة في حالة المنخفضات، وعميقة في حالة الجبال العالية، لكي يحدث الاستقرار على هذه الأرض الذي أشار إليه القرآن **(قرارا)** في قوله تعالى في سورة النمل: **(أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا، وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا، وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ، وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا، أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا**

---

[1] - (الغاشية: 17)..

يَعْلَمُونَ)[1]، وإلى هذا الاتزان وعدم الاضطراب أشار كتاب الله . عز وجل . في أكثر من عشر آيات، بلفظ: **(رواسي)** أي إرساء الأرض بالجبال بإيجازه المعجز قبل ما يزيد عن أربعة عشر قرنا من الزمان، عندما قال تعالى في سورة النحل : **(وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)**[2]. وعندما قال سبحانه في سورة الحجر : **(وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ)** [3]، وقال سبحانه في سورة الرعد: **(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا ...)** [4]. وقال سبحانه في سورة الأنبياء : **(وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)**[5]، وقال سبحانه في سورة فصلت : (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا ...) [6]، وقال سبحانه في سورة المرسلات : (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا)[7]، وقال سبحانه في سورة ق : **(وَالأَرْضَ**

---

[1] - (النمل: 61)
[2] - (النحل: 15)
[3] - (الحجر: 19)،
[4] - (الرعد: 3).
[5] - (الأنبياء: 31)
[6] - (فصلت: 10)
[7] - (المرسلات:27).

مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)[1]، وقال عز وجل في سورة لقمان: (خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ...)[2]، مشيرا إلى ما خفي على الإنسان من دور ووظيفة الجبال في ثبات واستقرار الأرض، لتصبح صالحة للعمران، ويعيش عليها هذا الإنسان، ليعمرها، كما أنها وسيلة لتثبيت الأرض في دورانها حول محورها أمام الشمس.

رابعا: الأرض والإعجاز العلمي:

﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[3].

أفلا ينظر الكافرون المكذِّبون والناس أجمعون، نظر تفكر واعتبار، إلى الأرض التي يعيشون عليها، كيف بُسطت ومُهّدت، حتى صارت شاسعة واسعة يستقرون عليها، ويزرعون فيها أنواع المزروعات؟! ولا ينافي ما ورد في الآية، القول بأن الأرض كرة، أو قريبة من الكرة، لمكان عظمها.

---

1 - (ق: 7).

2 - (لقمان:10)

3 - [سورة الغاشية آية 20]

وهذه نقلة في سورة الغاشية، من أعلى إلى أسفل، من السماء إلى الأرض، فهذه الأرض التي ندِبّ عليها، وتعيش عليها مختلِف الخلائق، كيف سطحها الله تعالى، وجعلها مهيأة للعيش فيها، والسير في أرجائها؟!

1 – لا تناقض بين القرآن والعلم في شكل الأرض

لعل هذه الآية، وآيات أخرى على نفس النسق، تبدو وكأنها تغاير العلم الحديث، عن حقيقة كروية الأرض، وقد استُغلّ الموضوع بشكل كبير من المشككين، ولربما أضلوا به الكثير، وهناك حقيقة علمية وراء كل هذه الآيات، أغفلها العلم الحديث، وبالتالي جعلنا لا ندرك واقعها، وهي: "أن القرآن كلام الله المتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة، ومعنى ذلك، أنه يجب أن لا يحدث تصادم بينه وبين الحقائق العلمية في الكون، لأن القرآن الكريم لا يتغير ولا يتبدل، ولو حدث مثل هذا التصادم لضاعت قضية الدين كلها. ولكن التصادم يحدث من شيئين؛ عدم فهم حقيقة قرآنية، أو عدم صحة حقيقة علمية. فإذا لم نفهم القرآن جيدا، وفسرناه بغير ما فيه حدث التصادم، وإذا كانت الحقيقة العلمية كاذبة حدث التصادم". ومن الآيات المتشابهة في النسق والمعنى، الآيات القرآنية التي تتحدث عن الأرض.

2 - آيات التسطيح تفيد تكوير الأرض ككل

- قال تعالى:**(ألم نجعل الأرض مهادا)**.

- وقال سبحانه:**(أفلا ينظرون أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت)**.

- وقال عز وجل: **(والأرض بعد ذلك دحاها)**، و معنى دحاها، هو بسطها و نحوه.

- وقال سبحانه: **(و الأرض مددناها)**.

هناك من لا يفهم المعاني في الآيات السابقة فيتهم من قال بأن الأرض كروية، أو بيضوية أنه كافر، لكن من تدبرها، و جد فيها الإعجاز اللغوي والعلمي. نقول: ما هي الأرض التي بسطها و سطحها و أمدها الله تعالى؟

لم يحدد الله أرضا بعينها، فعندما أقول مثلا: يكرم الله المجتهد، ف"أل" في المجتهد، تفيد عموم كل مجتهد، كذلك الأرض، تفيد معناها أي أرض، فإذا وصلت لأي بقعة تسمى أرضا، وفي أي بلد في الدنيا، وفي أي مكان تراها مسطحة، ولو اعتقدنا أن الأرض مربعة أو مثلثة فإنك إن سرت فيها لابد أن تصل لحافة، ولا تكون عندها منبسطة، بل سترى حافة، و من ثم الفضاء، لكن لو فرضنا أنك بدأت السير من نقطة على الأرض واستمررت في السير،

فستعود لنفس النقطة، وطوال رحلتك على الأرض تجدها مسطحة. فالشكل الوحيد الذي يحقق هذا، هو أن تكون الأرض كروية.

3 – الليل و النهار وجدا معا

مما يستدل به على كروية الأرض، قول الله تعالى في سورة الزمر: ﴿..**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ..**﴾[1]، والليل والنهار إنما يقعان على الأرض، ففي حركتهما، وتناوبهما، ينشأ هذا الشكل الكروي، ثم إن الحس والواقع يقطعان قطعاً جازماً أنها كروية. والجمع بين هذا، وبين قول الله تعالى: ﴿**وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**﴾، إن هذا بحسب نظر الناظر، يرى الأرض مسطحة، حتى ينقطع بصره بخط الأفق، قال تعالى: **(لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر و لا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون).**

في هذه الآية يؤكد سبحانه وتعالى أن الليل و النهار وُجدا معا، و ينفي مُعتقَد العرب كان موجودا وقتها، بأن الليل يسبق النهار، فنفى الله ذلك وقال: **(ولا الليل سابق النهار)**، فإذا كان النهار لا يسبق الليل، و لا العكس، فكيف يكون ذلك إلا بأن يكونا وجدا معا، قال تعالى: **(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا)**، فكلا منهما خِلْفة للآخر، و هنا

---

[1] – (الزمر-5).

سنضرب مثالا لتوضيح فكرة، لو قلنا: في مصنع افتتح جديدا، و ستعمل دورية صباحا ودورية بالليل، لابد أن دورية ستكون خلفة للأخرى، لكن الله تعالى يقول: إن الليل و النهار كلاهما خلفة للآخر، إذا لابد أن يكونا موجودين معا منذ بداية الخليقة، و هذا لا يتأتى إلا إن كان نصف الأرض ليلا و نصفها نهارا، و إلا فكيف يتعاقب علينا الليل والنهار، إن لم تكن الأرض تدور، فيتعاقب الليل و النهار.

4 – الأوصاف القرآنية للأرض ومعناها اللغوي:

السطح: ظهر البيت إِذا كان مستوياً لانبساطه؛ معروف، وهو من كل شيء أَعلاه! وسَطَحَ اللهُ الأَرضَ سَطْحاً: بسطها.

البسط: نقيض القَبْضِ، والبِساطُ ما بُسِط.

الدحي: الدَّحْوُ: البَسْطُ. دَحَا الأَرضَ يَدْحُوها دَحْواً: بَسَطَها.

المهاد: الفِراش. وقد مَهَدْتُ الفِراشَ مَهْداً، المِهادُ أَجمع من المَهْد، كالأَرض جعلها الله مِهاداً للعباد.

طحاها: طَحَاه طَحْواً وطُحُوّاً: بسطه.

الفراش: فَرَشَ الشيءِ يفْرِشُه: بسَطَه. وقوله تعالى: **(الذي جعل لكم الأَرض فِراشاً)**؛ أَي وِطاءً ، لم يَجْعلها حَزْنةً غَليظة لا يمكن الاستقرار عليها.

5 – العامل المشترك بين الأوصاف القرآنية للأرض:

العامل المشترك بين الفراش، والمهاد، والسطح، والبساط، هو أنها أشياء توضع فوق "الأرض" لتوفير الغاية المطلوبة، بينما يختص فعل الدحي بالمد والتوسع. فتفسير الآيات السابقة يتطابق مع المعنى اللغوي من حيث المعنى والمبدأ، فتفسير **(وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)** في كتب التفسير: "جبل مُسَطَّح: إذا كان في أعلاه استواء" وأيضاً في الآية الكريمة: وإلى الأرض كيف بُسطت، في كتب التفسير: "، أما تفسير **(وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ)**، يعني "والأرض دحوناها فبسطناها، ... وذُكر لنا أن أمّ القرى مكة، منها دُحيت الأرض"، وهنا تكمن نقطة البداية لتفسير الآيات.

6 – معنى الآية: شرح وبيان:

﴿ يج ي غة يقوك ية ي يي ي ة ﴾[1].

﴿ يج ي غة يقوك ﴾.(الأرض) في اللغة العربية: اسم جنس للكوكب الذي نحيا عليه، تمييزا له عن بقية الكون المعبر عنه بالسماوات، ويعبر (بالأرض) عن

---

1 – [سورة الغاشية آية 20]

أسفل الشيء، كما يعبر(بالسماء) عن أعلاه، فكل ما سفل من الشيء هو(أرضه)، وكل ما علا منه هو(سماه) أو(سماؤه)

وورد ذكر الأرض في أربعمائة وواحد وستين موضعا (461) من كتاب الله تعالى، منها ما يشير إلي كوكب الأرض في مقابلة السماء أو السماوات، ومنها ما يشير إلى اليابسة التي نحيا عليها، أو إلى جزء منها، ومنها ما يشير إلى التربة التي تغطي صخور اليابسة، وتفهم الدلالة من سياق الآية الكريمة.

أ – بسط الأرض وتمهيدها في القرآن الكريم:

﴿ يج ي غة بقويك ية ي يي ي ة ﴾. جاء ذكر فرش الأرض, وبسطها, وتمهيدها, وتوطئتها, وتسويتها, وتذليلها في عشر آيات من آي القرآن الكريم، وجاء ذكر خلق الأرض وذكر عدد من صفاتها وظواهرها وأحداثها في أكثر من مائة وسبعين آية أخرى **(170)**.

ب – بسط الأرض وتمهيدها في العلوم الحديثة

تضاريس الأرض الحالية

تقدر مساحة سطح الأرض الحالية بحوالي (**510**) ملايين كيلو متر مربع,

منها **(149)** مليون كيلو متر مربع يابسة، تمثل حوالي **(29 %)** من مساحة سطح الأرض، و**(361)** مليون كيلو متر مربع مسطحات مائية، تمثل الباقي من مساحة سطح الأرض **(71%)**، ومن هذه النسبة الأخيرة أرصفة قارية تعتبر الجزء المغمور بالمياه من حواف القارات، وتقدر مساحتها بحوالي**(173,6)** مليون كيلو متر مربع.

وكل من سطح اليابسة، وقيعان البحار والمحيطات، ليس تام الاستواء، ولكنها متعرجة في تضاريس متباينة للغاية، فعلى اليابسة هناك سلاسل الجبال ذات القمم العالية، وهناك التلال متوسطة الارتفاع، وهناك الروابي، والهضاب، والسهول، والمنخفضات الأرضية المتباينة.

وفي المسطحات المائية هناك البحار الضحلة، والبحيرات، كما أن هناك البحار العميقة، والمحيطات، والتي تتدرج فيها الأعماق من الأرصفة القارية، إلى المنحدرات القارية، ثم إلى أعماق وأغوار قيعان المحيطات.

ويقدر ارتفاع أعلى قمة على سطح اليابسة، وهي قمة جبل إفرست بسلسلة جبال الهيمالايا، بأقل قليلا من تسعة كيلو مترات(**8848 مترا**)، بينما يقدر منسوب أخفض نقطة على سطح اليابسة، وهي في حوض البحر الميت، بحوالي أربعمائة متر تحت مستوى سطح البحر، وحتى قاع البحر الميت الذي تصل أعمق أجزائه إلى حوالي ثمانمائة متر تحت مستوى سطح البحر،

يعتبر جزءا من اليابسة، لأنه بحر مغلق.

ويصل منسوب أعمق أغوار المحيطات، وهو غور ماريانا في قاع المحيط الهادي، بالقرب من جزر الفلبين، إلى حوالي الأحد عشر كيلو مترا(**11,033 متر**). وبذلك يصل الفرق بين أعلى وأخفض نقطتين على سطح الأرض، إلى أقل قليلا من العشرين كيلو مترا(**19,881 متر**), وبنسبة ذلك إلى نصف قطر الأرض، المقدر بحوالي**6371** كيلو مترا، فإن نسبته لا تكاد تتعدى (**%0,3**). ويقدر متوسط منسوب سطح اليابسة بحوالي (**840**) مترا فوق مستوى سطح البحر، بينما يقدر متوسط أعماق البحار والمحيطات بحوالي الأربعة كيلو مترات، (3729 مترا . 4500 متر تحت مستوى سطح الماء). وتضاريس الأرض الحالية، هي نتيجة صراع طويل بين العمليات الداخلية البانية، والعمليات الخارجية الهدمية، والتي استغرقت حوالي الخمسة بلايين من السنين.

ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد، ولم يعتبر بذلك الكفار، أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بوعظهم وتذكيرهم فقال في الفقرة الثالثة:

الفقرة الثالثة من الآية 21 إلى الآية 26 .

محور الفقرة الثالثة: بيان وظيفة الرسل عليهم السلام، وهي

الذِّكْرَى.

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26) ﴾[1].

تذكير ومذكر

يعود السياق القرآني إلى الإنسان نفسه، فيقول سبحانه: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ)؛ فلماذا جاء بهذا الحصر؟

- إن الأدلة مبثوثة في أرجاء الخليقة، وعقل الإنسان تكفيه حجة، ويأتي النبي، صلى الله عليه وسلم، ومن يتبع نهجه، ليقوم بدور المذكر. إنه ليس مكلفا عنهم، ولا مكرها لهم، ولا يتحمل مسؤولية أفكارهم، وإنما هم المسئولون، (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ)؛ فما على الرسول، صلى الله عليه و سلم، إلا البلاغ المبين، حتى معرفة الله لا تتم إلا بعقل الإنسان الذي يستثيره النبي بتذكرته.

وليس الرسول، صلى الله عليه و سلم، عليهم بجبار، إنما يذكر بالقرآن من يخاف وعيد، ولذا قال تعالى : ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾. والسيطرة هي

[1] - سورة الغاشية، الآيات 21 - 26.

التسلط ومعناها الجبر والإكراه.

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾[1].

﴿ فَذَكِّرْ ﴾: التذكير: الدلالة على الحق، المصحوب بالموعظة التي تحرك القلوب،

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾: أداة حصر، يعني: أن مهمتك، ووظيفتك هي البلاغ، والذكرى.

﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾[2].

﴿ بِمُصَيْطِرٍ ﴾: المصيطر : المتسلط على غيره بالقهر له، يقال: تصيطر فلان على فلان، وصيطر إذا تسلط . وقال أبو عبيدة : مصيطر ومبيطر ، لا ثالث لهما في كلام العرب .

على المخاطبين من المشركين، يعني بمتسلط، وجبار. والقراءة المشهورة بالصاد، كما عند عاصم، ونافع، وابن كثير، وأبي عمرو، ولكن ثم قراءة بالسين عند ابن عامر، والكسائي، في رواية. وهما لفظان متطابقان في

1 – [سورة الغاشية، آية 21]

2 – [سورة الغاشية آية 22].

الدلالة على معنى التسلط، والتجبر، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم، لا يملك أن يُدخل الإيمان، والذكرى في قلوبهم قسراً. وقد قال بعض المفسرين [1]: "إن هذه الآية منسوخة بآية السيف"، والصحيح في آيات الجهاد أنها ليست من قبيل المنسوخ، وإنما تنزل كل آية على الحال الذي يناسبها، فلا يقال: إن آية السيف نسخت جميع الآيات، نعم نسختها في الوقت الذي نزلت فيه، لكن إذا تجدد حال من الضعف لأهل الإسلام، ولم يتمكنوا من رفع علم الجهاد، فإنهم يطبقون ما يناسب الحال. مثال ذلك: قال الله تعالى في سورة التوبة: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [2]، فهذا غير متأتٍ الآن، وغير ممكن، وذلك بسبب ما آل إليه حال الأمة من الضعف، فلهذا ربما يتنزل على الحال الأمر بالكف، فإن الله تعالى قد قال للمؤمنين في حال الضعف في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ﴾ [3]، فينبغي أن تطبق الآيات المتعلقة بالجهاد بحسب الحال لا يتعسف في تطبيقها على غير ما يناسبها. فقوله تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ

---

1 - كالطبري، والقرطبي، والبغوي).

2 - (التوبة-29).

3 - (النساء-77)

بِمُسَيْطِرٍ﴾ هذه آية محكمة، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم، لا يملك إدخال الإيمان، والذكرى، في قلوبهم قسرًا وإكراهًا. قال تعالى في سورة القصص: **﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾**[1].

أي فعظ يا محمد ، وخوّف المعرضين، بما أُرْسِلْتَ به إليهم، ولا تحزن على إعراضهم، ولا يُهِمّنّك أنهم لا ينظرون ولا يتفكرون.أي لست بمتسلط عليهم، ولا قاهر لهم، حتى تجبرهم على الإيمان ، فإنما أنت واعظ ومرشد لهم، ليس عليك إكراههم على الإيمان.

جهاد الكفار

لماذا استثنى سبحانه الكفار ، فقال: **(إلا من تولى وكفر)؟**

– إن الكفار الذين يقاومون الرسالة، إنما يتعرضون لسخط الله وعذاب عباده المؤمنين؛ لأنهم يسيئون التصرف في الحرية الممنوحة لهم. وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: **(إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ)**؛ ولكن يبدو أن سائر آيات القرآن تفسر هذه الآية؛ إذ إن من تولى عن الحق وكفر به، وخالف الرسول، صلى الهر عليه وسلم، وناصبه العداء، يجاهَد حتى يعود إلى رشده، وهذا ما نقرؤه بتفصيل في آيات الجهاد، وفي سورة الممتحنة بالذات. وقد

1 - [القصص : 56]

روي عن علي، رضي الله عنه، أنه جيء إليه برجل ارتد؛ فاستتابه ثلاثة أيام؛ فلم يعاود الإسلام؛ فضرب عنقه، وقرأ: **(إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ)**.[1]

﴿يع يه ميري هييدي﴾.[2]

﴿يع يه ميري﴾.أي، لكن من أعرض عن الوعظ والتذكير،

﴿هييدي﴾: وأصرَّ على كفره، وكفر بالله العلي القدير. وأعرض، وصد.

عذاب الدنيا قبل الآخرة

* قال تعالى: **(فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ)**؛ فما هو العذاب الأصغر؛ إذن؟

– أولئك الكفار المنابذون العداء للرسالة، يجاهدهم المسلمون؛ فيعذبهم الله في الدنيا بأيديهم، وهو العذاب الأصغر؛ ثم يعذبهم في الآخرة العذاب الأكبر؛ وذلك قوله تعالى: **(فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ)**.

﴿ميميي ييغ يغة يغ يغة يةمير﴾.[1]

---

[1] – تفسير القرطبي،ج22،ص37.

[2] – [سورة الغاشية آية 23].

فيعذبه الله العذاب الشديد في النار؛ الدائم عذابها، وإنما قال سبحانه: العذاب[الأكبر] لأنهم عذبوا في الدنيا الأصغر، بالجوع والقحط والقتل والأسر. هذا وعيد من الله عز وجل للكافر المتولي، بأشد العذاب.

لقوله: ﴿..الْأَكْبَرَ﴾ وهو عذاب النار.

المصير إلى الله

* لماذا ذكَّر الله بالمصير والحساب وقال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾.؟

– ما دام مقصد سورة الغاشية هو البعث، فإن في نهاية السورة، يذكرنا ربنا بالمصير إليه، وأنه لا يستطيع أحد أن يهرب من مسؤولية أعماله؛ قال سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾[2].

﴿ إِيَابَهُمْ ﴾: أي: عودتهم. ورجُوعَهم بعد الموت بالبعث. ولم يقل الحق عز وجل: إن إيابهم إلينا، وإنما سبق المعمول على العامل، ليفيد الحصر، أي

[1] – [سورة الغاشية آية 24]

[2] – [سورة الغاشية آية 25].

إلينا وحدنا رجوعهم جميعاً.بعد الموت.

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾[1].

أي جزاءهم. يحاسبهم جميعا كما رزقهم في الدنيا على كثرتهم. وهنا كذلك، قدم سبحانه المعمول على العامل، فلم يقل سبحانه: ثم إن حسابهم علينا، ليفيد الحصر، أي ثم إن علينا وحدنا حسابهم وجزاءهم على ما عملوا

فطوبى لمن حاسب نفسه هنا قبل أن يحاسب هناك، وتاب إلى الله من ذنوبه هنا، قبل أن يجازى بها.

[1] - [سورة الغاشية آية 26].

المحور السابع:

القرآن الكريم كتاب هداية، ومن هداية آيات سورة الغاشية.

1 – تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر عرض سريع لها.

2 – من أسماء القيامة الغاشية، لأنها تغشى الناس بأهوالها، كما تغشاهم بالرحمة.

3 – بيان أن في النار نصباً وتعباً. على عكس الجنة، فإنها لا نصب فيها ولا تعب.

4– من مؤلمات النفس البشرية، لغو الكلام، وكذبه باطله، وهو ما ينزه عنه المؤمنون أنفسهم

5 – تقرير البعث والجزاء بالدعوى إلى النظر إلى الأدلة الموجبة للإيمان به.

6 – بيان أن الداعي إلى الله تعالى مهمته الدعوة دون هداية القلوب، فإنها إلى الله تعالى وحده.

7 – بيان أن مصير البشرية إلى الله تعالى، وهي حال تقتضي الإيمان به تعالى وطاعته، طلبا للنجاة من عذابه، والفوز برحمته. وهو مطلب كل عاقل، لو أن الناس يفكرون

8 – الغاشية لأهل النار، لأنها غشيتهم بالعذاب حسًّا ومعنى، ظاهرًا وباطنًا، فمع الذلة، العمل والنصب حسًّا وبدنًا، ثم صلي النار الحامية، وكان يكفي أن تصلى نارًا. ولكن جاء الوصف ب "حامية"، زيادة في إبراز عذابهم، وزيادة

في غشيان العذاب لهم، ثم يسقون من عين آنية، متناهية في الحرارة؛فيكونون بين نار حامية من الخارج، وحميم من الداخل تُصهر منه البطون، فهو أتم في الشمول للغاشية لهم من جميع الوجوه

9 – الغاشية لأهل الجنة بأن يغشاهم نعيم كامل وسرور شامل، ووجوه وضاءة مكتملة النعمة، تعرف فيها نضرة النعيم. ومن إطلاق الغاشية على الخير كذلك، ما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: (وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه) .

10 – كم من ذنوب اقترفناها قد سترها الله عز وجل، ولم يعلم بها أحد، لكنّ الله تعالى يعلمها، فعلينا أن نستغفر الله عز وجل كثيرًا، وأن نكثر من الأعمال الصالحة المكفرة للسيئات، حتى نلقى الله عز وجل ونحن على ما يرضيه سبحانه وتعالى.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الفهرس

المصادر والمراجع

1 - **القرطبي؛** محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبد الله، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن **(تفسير القرطبي)**، الناشر: مؤسسة الرسالة، سنة النشر: 1427 - 2006، الطبعة الأولى.

2 - **ابن قدامة؛** أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، **مختصر منهاج القاصدين** ، المحقق: شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط ، الناشر: دار البيان - مؤسسة علوم القرآن، سنة النشر: 1398 - 1978.

3 - **ابن منظور؛** محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، **لسان العرب**، الناشر: دار صادر - بيروت.

4 - **الجرجاني؛** أبو أحمد بن عدي الجرجاني (المتوفى: 365هـ)، **الكامل في ضعفاء الرجال**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود-علي محمد معوض شارك في تحقيقه: عبد الفتاح أبو سنة الناشر: الكتب العلمية - بيروت-لبنان الطبعة: الأولى، 1418هـ1997م.

5 - **ابن أبي عاصم؛** أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني (المتوفى: 287هـ)، **الآحاد والمثاني**، المحقق:

د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، الناشر: دار الراية – الرياض، الطبعة الأولى، 1411 – 1991.

6 – **ابن الجوزي؛** عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي أبو الفرج، **الموضوعات**، المحقق: عبد الرحمن محمد عثمان، سنة النشر: 1386 – 1966، الطبعة الأولى.

7 – **ابن الجوزي؛** عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج، **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر**، المحقق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، الناشر: مؤسسة الرسالة، سنة النشر: 1407 – 1987، الطبعة الثالثة.

8 – **ابن الشجري؛** هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسني العلوي أبو السعادات ابن الشجري، **أمالي ابن الشجري** ، المحقق: الطناحي، محمود محمد ، الناشر: مكتبة الخانجي، سنة النشر: 1413 – 1992، الطبعة الأولى.

9 – **ابن حبان؛ صحيح ابن حبان** ، المحقق: أحمد شاكر، الناشر: دار المعارف، سنة النشر: 1372 – 1952.

10 – **ابن حجر العسقلاني**؛ أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر، **فتح الباري شرح صحيح البخاري** ، المحقق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز – محمد فؤاد عبد الباقي – محب

الدين الخطيب، الطبعة الأولى.

11- **ابن حنبل؛** أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ)، **مسند الإمام أحمد بن حنبل** ، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1421 هـ - 2001 م.

12 - **ابن رجب؛** عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي ثم الدمشقي، أبو الفرج، زين الدين، الخشوع في الصلاة (ت: الطهطاوي)، المحقق: أحمد مصطفى قاسم الطهطاوي، الناشر: دار الفضيلة.

13- **ابن عاشور؛** محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، الناشر: الدار التونسية للنشر.

14 - **ابن فارس؛** أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، **معجم مقاييس اللغة** ، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399هـ - 1979م.

15 - **ابن قيم الجوزية؛** محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين، **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة** ، المحقق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، الناشر: مجمع الفقه الإسلامي - جدة، سنة النشر: 1432، الطبعة الأولى.

16- **ابن قيم الجوزية؛** محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين، **مدارج السالكين** ، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي، سنة النشر: 1423 – 2003، الطبعة السابعة.

17 – **ابن كثير؛** إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقي، أبو الفداء، عماد الدين، **تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)**، المحقق: سامي بن محمد السلامة، الناشر: دار طيبة، سنة النشر: 1420 – 1999، الطبعة الثانية.

18 – **ابن ماجه؛** محمد بن يزيد الربعي القزويني، أبو عبد الله، ابن ماجة، **سنن ابن ماجه**، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية (فيصل عيسى البابي الحلبي).

19 – **أحمد فؤاد باشا، رحيق العلم والإيمان،** Bibliotheca Alexandrina، مكتبة الإسكندرية.

20 – **الإمام مسلم؛** مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابورى، أبو الحسين، **صحيح مسلم**، المحقق: نظر بن محمد الفاريابي أبو قتيبة، الناشر: دار طيبة، سنة النشر: 1427 – 2006، الطبعة الأولى.

21 – **البخاري؛** محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد

الله، **صحيح البخاري**، الناشر: دار ابن كثير – دمشق بيروت، سنة النشر: 1423 – 2002، الطبعة الأولى.

22 – البغوي؛ الحسين بن مسعود البغوي، **معالم التنزيل (تفسير البغوي)**، الناشر: دار ابن حزم، سنة النشر: 1423 – 2002، الطبعة الأولى.

23 – الجرجاني؛ علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، **معجم التعريفات**، المحقق: محمد صديق المنشاوي، الناشر: دار الفضيلة.

24 – الدامغاني؛ الحسين بن محمد الدامغاني، **قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**، المحقق: عبد العزيز سيد الأهل، سنة النشر: 1983، الطبعة الرابعة.

25– الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن ، المحقق: صفوان عدنان داوودي، الناشر: دار القلم– الدار الشامية، سنة النشر: 1430 – 2009، الطبعة الأولى.

26 – السعدي؛ أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (المتوفى: 1376هـ)، **تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن**، الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1422هـ .

27 – الطبراني؛ سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو

القاسم، **المعجم الكبير (معجم الطبراني الكبير)**، المحقق: حمدي عبد المجيد السلفي، الناشر: مكتبة ابن تيمية.

28 - **الطبري**؛ ابن جرير الطبري؛ محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)**، المحقق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر.

29 - **القرطبي**؛ محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبد الله، القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)**، المحقق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، سنة النشر: 1427 - 2006، الطبعة الأولى.

30 - **النسائي**؛ أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار، أبو عبد الرحمن النسائي، **السنن الكبرى (سنن النسائي الكبرى)**، المحقق: حسن عبد المنعم شلبي، الناشر: مؤسسة الرسالة، سنة النشر: 1421 - 2001، الطبعة الأولى.

31 - **الهيثمي**؛ الحارث بن أبي أسامة [186 - 282]، **بغية الباحث عن زوائد مسند**، المحقق : د. حسين أحمد صالح الباكري، الناشر : مركز خدمة السنة والسيرة النبوية - المدينة المنورة، الطبعة الأولى ، 1413 - 1992.

32 - **طنطاوي**؛ محمد سيد طنطاوي، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم** ، الناشر:

دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة الأولى.

33 – **عبد الباقي؛** محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، الناشر: دار الكتب المصرية، سنة النشر: 1364.

34 – **علي محمَّد محمَّد الصَّلابي**، **المعجزة الخالدة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، براهين ساطعة وأدلة قاطعة**، دار المعرفة، بيروت. لبنان، 2013م .

35 – **يوسف الحاج أحمد**، **موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة**، مكتبة ابن حجر، الطبعة الثانية 1424 – 2003.



القرآن رسالة من الله للثقلين - الإنس والجن - فلنتعامل مع هذه الرسالة الربانية، على الأقل كما نتعامل مع الرسائل البشرية: نقرأها ونفهمها ونطبق ما فيها، فإن فعلنا عشنا سعادة الدارين، الدنيا والآخرة، وإلا فالشقاء والمعيشة الضنكة تنتظر كل معرض

عن القرآن تلاوة وفهما وتطبيقا، قال تعالى في سورة طه:(فإما يأتينكم مني هدىً، فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا، ونحشره يوم القيامة أعمى) الآيات 120- 122